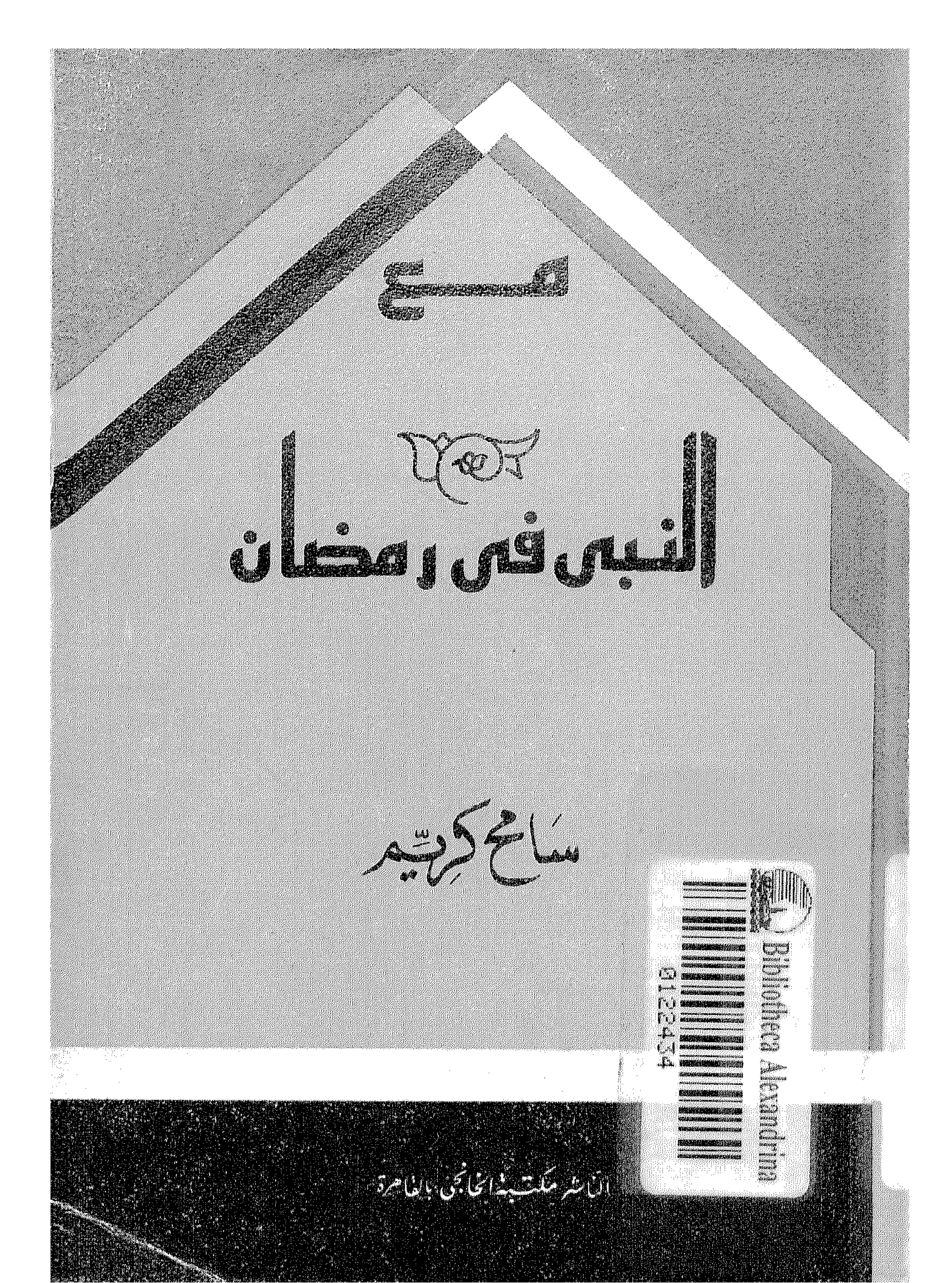

مع
النبى فى رمضان
سامح كريم
الناشر مكتبة الخانجى بالقاهرة
Bibliotheca Alexandrina
0122434



مع النبي في رمضان

سامح كريم

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى

تصميم الغلاف : يسرى موافى

رقم الإيداع ٣٣٢٧/١٩٨٩ م

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ت ٨٤٢٨٥١

إهـــداء.....

إلى شقيقى اللواء اركان حرب الفاتح كريم
عضو مجلس الشعب ..

كنت تشفق علىَّ من متاعب مهنة القلم ، وكنت أشفق عليك من مشقة حياة السيف ... وكثيرا ما تحدثنا حول أيهما أصدق إنجازا لعودة الحق فى عالمنا المعاصر ... العالم الذى يقترب أحيانا من حافة الهاوية . فيختار الدبلوماسية حلا بدلا من الصدام المسلح . حتى كانت حرب العاشر من رمضان (السادس من اكتوبر) زمانا . ومعركة (جبل المر فى

سيناء) مكانا . يومها كان الحل الحاسم للسيف . يوم أن صنعت لأمتك العربية الإسلامية أعظم ملاحم البطولة فوق هذا الجبل - الذى سمى بإسمك . فأصبح الآن (جبل الفاتح) تقديرا من أمتك لفدائك وبطولتك . . .

وهذه صفحات من هدى النبى ﷺ فى رمضان ، تعودنا أن نقتدى بها منذ الصغر . لا لأن أباءنا علمونا أننا ننحدر أصلا من الأرض الطاهرة التى شرفها بنوره . ولكن لأننا حين تعرفنا على سيرته ﷺ . أكبرنا فيه كل الفضائل . ومنها فضيلة التمسك بالحق . فتعلمنا التمسك بالحق ... أنت فى ميدان المعركه فى سيناء ، وأنا فى ميدان صناعة الكلمة . نعم تعلمنا التمسك بالحق مهما تكن شدة المتاعب والمشاق والمخاطر ، ومهما تكن صولة الباطل والطغيان والعدوان ...

فإليك أهدى هذه الصفحات . عسى أن تجد فيها صدى لأحاديثنا الطويلة حول القلم حين يسعى جاهدا نحو الحق □

اخوك

سامح

كلمـــــة
لابد منهـــا ...

بسم الله الرحمن الرحيم

كلما شرعت فى تأليف كتاب ... كانت المقدمة هى أكبر المشاكل التى تواجهنى ... إلى درجة أننى عادة ما أرجىء هذه المقدمة يوما بعد يوم ... حتى أفرغ تماما من كتابة فصول الكتاب نفسه ، مع أن

خطوط هذه المقدمة تلتمع دائما فى خاطرى على الأقل أثناء العمل فى هذا الكتاب . وكيف تغيب عنى هذه الخطوط المتمثلة فى فكرة الكتاب نفسه . وهى تشغلنى طوال الوقت ؟

إن هذه الفكرة ... فكرة أى كتاب حين تسيطر على عقل صاحبها تغدو كالملكة المستبدة التى تذكر ولا تنسى ، تحاسب ولا تصفح ، تعاقب ولا ترحم . حتى يستوعبها هذا العقل استيعابا كاملا . من بعده يتمثلها ويتجسدها كصورة واضحة متكاملة فى سماتها وقسماتها ، بعدها يستطيع العقل تقسيمها إلى أجزاء وفصول ، وترتيب هذه وتلك إلى موضوعات وفقرات ، فى هيكل واحد ، ونسق منسجم ، ثم تنظيم كل ذلك ليكون فى النهاية عملا جديرا بفكرته الأولى .

ورغم وضوح هذه الخطوط ، التى من مجموعها يتكون ما يسمى بالمنهج فى ذهنى . إلا أننى مع ذلك . لا أستسيغ كتابة مقدمات الكتب . حتى أصبحت كتابة المقدمة عندى ... تتطلب جهدا ربما يصل أحيانا إلى ما تتطلبه كتابة الكتاب نفسه .

ولعل عدم استساغة كتابة المقدمات عندى ... ترجع أساسا إلى أننى أكتشف أحيانا أن مقدمة يدبجها المؤلف أو صديقه أو ناشره .. ربما تكون – فى بعض الأحيان – إما تسويغ لخطأ أو تزيين لقصور أو ثناء يبتز ذكاء القارئ . أو ربما يرجع عدم استساغة كتابة المقدمات إلى أن بعض الأعمال الجليلة – مثل هذا العمل الذى أشرف بالتصدى له – لا تحتاج من كاتبها إلى مقدمات . فهى بكل جلالها وشموخها وثرائها ... كفيلة بأن

تقدم نفسها ، بل وكاتبها إلى القارئ . وقد يرجع عدم الإقبال على كتابة هذه المقدمات لأى كتاب إلى مسايرتى لروح العصر الذى نعيشه . وهو عصر يتسم بالمباشرة والسرعة . وهذه وتلك تقتضى الدخول فى الموضوع دون مقدمات . إذْ ليس لدى القارئ فى هذا العصر وقتا كافيا ينفقه فى قراءة مقدمة أو استهلال أو خطبة كما كان يصنع السلف الصالح . فى وقت تقتحمه وسائل أخرى للثقافة أيسر وأسهل فى توصيل المعارف . بمجرد الضغط على واحد من الأزرار . حسب هذا القارئ أن يجد لديه وقتا يكفى لقراءة مادة الكتاب نفسه .

ولهذا ولغيره تمنيت كثيرا – كلما شرعت فى تحرير صفحات كتاب – ألا أكتب مقدمة تحلى جيدها . متصورا أننى لو فعلت ذلك . فإن قارئها لن يرميها بالنقص أو التقصير . بل ربما يحمد لها هذا التقشف .

وفى هذا الكتاب ، تمنيت لو تركت القارئ وجها لوجه مع هذا الهدى المحمدى الشريف ... ملتمسا منه ما يصلح زادا لدنياه ، وعملا صالحا لآخرته . تمنيت أن أفعل ذلك دون تدخل منى . لكن حال بين ما أتمنى ظروف هذا الكتاب نفسه . فهناك أسباب تجعل للمقدمة وجودا ضروريا فى هذه المرة . وعملا لابد منه .

من هذه الأسباب وجوب التنويه عن أن فصول هذا الكتاب كانت فى الأصل مقالات تنشر يوميا بالأهرام – بمعاونة صديق الحياة الأستاذ محمود مهدى مساعد رئيس تحرير الأهرام جزاه الله خيرا – فى رمضان العام الهجرى ١٤٠٦ الذى يوافق عام ١٩٨٦ . وهنا أيضا وجب التأكيد على

أن ما كان يصلح مقالا يوميا صغيرا فى صحيفة سيارة . لا يصلح مادة متكاملة لفصل فى كتاب . لقد كان على كاتب هذه السطور أن يقوم بإعادة كتابة فصول هذا الكتاب من جديد مستفيدا بالطبع من مقالاته اليومية . كخطوط عريضة تعيدنى مرة أخرى إلى المنابع الأولى التى عاونت فى تكوين مادة هذا الكتاب . محافظا – قدر الامكان – على الشكل الذى استقبله قارئ مقال الأمس ، وفى الوقت نفسه محافظا على المنهج الذى يتطلبه القارئ لفصول الكتاب، من حيث الاتساع والعمق والتوثيق بشكل يصل إلى خمسة إضعاف ما كان يكتب من قبل أملا فى تجنب « الخطأ » الذى يقع فيه البعض . حين يعتبرون المقال فصل فى كتاب . رغم الفارق الكبير بين المقال فى صحيفة والفصل فى كتاب .

* * *

وثانى هذه الأسباب هو التأكيد على أننى لا أعيد كتابة السيرة النبوية الشريفة ... حتى لو كنت قد شرفت بقراءة عشرات الكتب ، واكتشفت طرائق جديدة للتناول . إن إعادة كتابة السيرة النبوية الشريفة ليست موضوع بحث هذا الكتاب . الذى لا يتعدى طموحه العلمى أن يسجل جانبا من الهدى النبوى الشريف فى رمضان . أى يلتزم – قدر الإمكان – بالجانب الخاص بحياة النبى ﷺ فى رمضان . بحيث يستشف القارئ الكريم الصورة الحية لجانب من جوانب المجتمع الإسلامى فى عصر النبوة محاولا أن يعيش التجربة المثلى التى عاشها النبى ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم فى ذلك الشهر المعظم .

* * *

ثالث هذه الأسباب هو التأكيد على أننى كنت كغيرى ممن تصدوا للكتابة عن جانب من جوانب السيرة الشريفة – مجرد قارئ استفاد من فضل السابقين ، ورغب أن يشاركه الآخرون فى هذه الإستفادة . مدركا أن هذا الجهد الذى يسعفه عون من الله وفضل . ليس سوى إيماءة إلى هذا الصرح الشامخ للتراث المحمدى الخالد . آملا أن يكون مرجعا بين يدى القارئ يعود إليه إذا أراد بحثا يختلف فى منهجه وتناوله عن غيره من البحوث . وحسب هذا الكتاب وصاحبه ... من طموح علمى ... أن يكون فى متناول من يحتاج إليه بصورة ميسرة .

* * *

ترى هل بقى لى ما أقوله ؟

نعم . أريد أن أقول مؤكدا . أننى بهذه الصفحات . لا أزعم أننى أضيف جديدا إلى ما كُتِبَ عن السيرة النبوية ، وإن كنت مع ذلك أحاول أن أفتح بابا جديدا للحب الفكرى . لهذه السيرة العطرة وصاحبها ﷺ . وللدين الإسلامى الحنيف . الذى قدَّم للتفكير البشرى مساحات هائلة من إمكانية التأمل والبحث . مجربا كل مقوماته فى الإقناع والصدق ، متتبعا كل وسائله فى الدقة والموضوعية .

بعد ذلك يحق للقارئ إذا كان سيقرأ هذا الكتاب صفحة صفحة ، فعليه أن يناقشه كلمة كلمة . فهذه الصفحات التى كتبت فى رحاب السيرة النبوية إذا طمحت إلى شئ . فربما تطمح إلى أن تحفز هذا

القارىء وتحرك عقله فى الجهات الأربع . تحفزه إلى تنمية فضيلة التفكير . على إعتبار أنه إذا كان التفكير فضيلة كرم الله بها الانسان على الأرض . فهو فى الإسلام فريضة .

هذه الصفحات تدعوك – وهذا هو المهم – إلى حمل أمانة وجودك كإنسان يؤمن بعقيدته بفهم وإقناع ، بحجة ودليل ، بعلم ومعرفة . فتحاور كل ما حولك وتفكر فيه . حتى تصل إلى رأى صائب . ويوم أن تصل إلى هذا الرأى . فلتواجه الدنيا كلها ...والله الموفق □ .

سامح كريّم

المعادى : ١٩٨٩

قــــراءة
جــــديدة
فــــى
سيرتـه

حول السيرة النبوية نرجو أن نكون ضيوفا مباركين فى رمضان .

ولقد تحدث كتاب كثيرون ، وكتب باحثون ودارسون أيضا فى هذه السيرة . منذ اللحظة الأولى التى جاء فيها صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام . ليكون للعالمين بشيرا ونذيرا ، ومعلنا بلسان عربى مبين ... يشكل موقفا باهرا ضد ما فى الحياة الإنسانية من ضعف وعجز ... أنه ما جاء إلاّ رحمة للعالمين .

أقول لقد تحدث الكثيرون ، وكتب الباحثون والدارسون ... فى سيرته عليه أفضل الصلاة والسلام بشكل يتطلب حصر أسماء هؤلاء وهؤلاء ثبتا علميا ضخما - وهو ما حاوله الناشرون لسيرة ابن هشام - ذلك لأن ظهور الرسالة المحمدية كان أعظم حدث فى تاريخ العرب خاصة والبشر عامة . لأن حياة العرب السادة منهم والدهماء - أيام النبى - كانت منصرفة لهذا النبى ﷺ ، وما بشر به من دين جديد هو الإسلام . فما اجتمع ملأ منهم أو تفرق إلا فى الحديث فيه . ولا تحدثوا فى منتدياتهم إلّا عنه ، ولا تحركت جيوشهم وكتائبهم إلا له . حتى صدق من قال أن قصارى بلائه - عليه أفضل الصلاة والسلام - فيهم إجتماعهم على الإسلام ، ونبذهم ما كانوا فيه من الجاهلية والضلالة .... حتى استقرت بين العالمين رسالته لتقيم العدل بين الناس ، ولتضرب المثل الأعلى فى علو الهمة ، ونصرة الحق ، والتعاون على البر والتقوى ، والاستمساك بمكارم الأخلاق وبإختصار هداية البشر . وهذا وغيره هو ما تحفل به وتتضمنه السيرة النبوية التى إهتم بها وبالتأريخ لها هؤلاء وهؤلاء .

وكما يذكر المحققون لسيرة ابن هشام متفقين مع مَنْ سبقهم فى الكتابة عن هذه السيرة العطرة ... لم يكن للعرب قبل مبعث النبى ﷺ من مادة التاريخ إلا ما توارثوه عن أجدادهم بالرواية . أى ما كان شائعا بينهم من أخبار الجاهلية الأولى . كحديثهم عن أباءهم وأجدادهم وأنسابهم وما فى حياة الآباء والأجداد من قصص البطولة والكرم والوفاء ، وما فى أنسابهم من العزة والفخر وعلو الهمة . ثم حديثهم عن هذه المعالم

التاريخية التى يلتقون بها يوميا ... حيث أنها ماثلة أمامهم ... كالبيت وبئر زمزم وجُرْهُم ، وما جرى لسد مأرب من تفرق الناس فى القبائل ... إلى غير ذلك من الأمور التى قامت فى رصدها الذاكرة مقام الكتاب ، واللسان مقام القلم ... بشكل يعيه الناس جيدا ، ثم يحفظونه ثم يتناقلونه الخلف عن السلف .

إلى أن ظهر النبع الذى لا ينضب ، والمورد الجديد الذى لا ينتهى ... بظهور النبى ﷺ وظهور دعوته ... فكانت حياته ودعوته ... هى أحاديث الصحابة والتابعين ... أحاديث أستوعبت ولادته ثم حياته من بعد . وما ملئت به هذه الحياة من جهاد فى سبيل الله ، ومواجهه مع مَنْ ليس على دينه أو المشركين الذين لا يؤمنون بدعوته ... إلى جانب الدعوة إلى التوحيد ، ومطالبة العرب بالإيمان بإله واحد .. وهم وقتئذ يؤمنون بآلهة متعددة . ومن هذا وذاك تكوَّن للعرب ما يعرفه العلم الحديث باسم التاريخ فى المقام الأول ثم السيرة بعد ذلك .

إلا أنه مع ذلك لم يدوَّن فى تاريخ العرب أو السيرة شىء – على ما تذكر أغلب المصادر – إلى أن مضت أيام الخلفاء . بل لم يُدوّن فى هذه الفترة غير القرآن الكريم ومبادىء النحو . ذلك لأن لكل من الأمرين حافز قوى . فقد حفزهم الحرص على حفظ هذا الكتاب المبين أن يكتبونه ، كما حفزهم على استقامة اللسان العربى المبين وعدم تفشى العجمة عليه أن يدونوا قواعدا للنحو ... إلى أن كانت أيام معاويه بن أبى سفيان . الذى رأى أن يدون فى التاريخ كتاب للعرب . فأستدعى من صنعاء عبيد بن

شريه الجرهمى . وطلب منه ذلك . فكتب الجرهمى كتاب « الملوك وأخبار الماضين » . وكانت هذه البداية – تقريبا – التى فتحت العيون ، وأيقظت الألباب إلى إتجاه العلماء فى البحث فى علم التاريخ من الوجهة الخاصة . وهى سيرة النبى ﷺ ولعلهم – كما تعلق هذه المصادر – وجدوا فى تدوين كل ما يتعلق به عليه الصلاة والسلام شيئا يحقق ما فى أنفسهم من كل حب وكل تقدير ، وكل رغبة فى تخليد آثاره . بعد أن منعوا من تدوين أحاديثه حتى أيام خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه مخافة أن يختلط الحديث النبوى بالقرآن الكريم . من هنا جاء أكثر من عالم كلهم فى الأصل محدثين ، ليدونوا فى السيرة النبوية كتبا . فى مقدمتهم عروة بن الزبير بن العوام . العالم الفقيه المحدِّث . الذى يسر له نسبه من قبل أبيه الزبير بن العوام ... أن يكون راوية للكثير من الأخبار والأحاديث وجوانب كثيرة من الحياة فى صدر الإسلام وقد أخذ عن عروة كثيرون ممن يرجع إليهم وفى مقدمتهم ابن إسحاق والواقدى والطبرى . وجاء بعد عروة عدد من المهتمين بالكتابة عن جوانب هذه السيرة العطرة وفى مقدمتهم « أبان بن عثمان بن عفان » و « وهب بن منبه اليمنى » و « شرحبيل بن سعد » و « إبن شهاب الزهرى » و « عاصم بن قتادة » و « عبد الله بن أبى بكر بن حزم » وغيرهم حتى كان شيخ رجال السيرة محمد بن إسحاق . الذى جاء بعده عدد من كتاب السيرة الثقات فى مقدمتهم « زياد البكائى » و « الواقدى » صاحب المغازى و « محمد بن سعد » صاحب الطبقات و « إبن هشام » الذى انتهت اليه سيرة ابن اسحاق فعرفت به وشاع ذكره بين الكاتبين بها .

واستمر الإهتمام بكتابة السيرة إلى يوم الناس هذا ... فما زال البعض يتحدثون والبعض الآخر يبحثون ويدرسون . والثالث يكتب ويبدع .. والكل يسأل : هل من مزيد للحديث وللبحث وللدراسة وللابداع عن هذا الذى شاد بنيان خير أمة أخرجت للناس . وأضاف للحضارة الإنسانية مزيدا لا يمحى . وصنع بتعاليمه وقيمه ومبادئه أساس الدولة الإسلامية الممتدة – عبر الزمان – من يوم مبعثه إلى القرن الخامس عشر الهجرى .

التأليف فى سيرته عليه أفضل الصلاة والسلام لا ينقطع ، والحديث عنه لا ينتهى ، والبحث والدرس حوله لا يكف ، والأقلام بما تجرى به على الورق لا تجف . وما أظن توقفا لكل ذلك حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها .

وهذا الكم الهائل بكيفه ، الهادف بتوجهه ... يضع الباحث – عادة – أمام حيرة كبرى مصدرها هذا الإتساع الكمى والكيفى والذى يطرح تساؤلا : ومن أى زاوية يبدأ ليتحدث أو يبحث أو يدرس أو يكتب أو حتى يبدع ؟

ولقد حار فى الإجابة الكثيرون من شيوخنا وأساتذتنا عندما كانوا يشرعون فى التأريخ للنبى ﷺ وما يتصل به بعد ذلك من إقامة الدولة الإسلامية . ولعلنى أذكر ثلاثة من شيوخنا توقفوا طويلا عند هذا التساؤل : من أى زاوية يبدأون ؟ وهم : طه حسين وأحمد أمين وعبد الحميد العبادى . عندئذ وصلوا – بعد تفكير طويل – إلى الإتفاق فيما

بينهم أن يختار أحمد أمين زاوية الحياة العقلية لهذه الدولة الإسلامية ومؤسسها النبى ﷺ . فيأخذ نفسه - ككاتب وباحث - فى البحث والدرس عن هذه الحياة العقلية للأمة العربية الإسلامية إبان القرن الأول الهجرى وما يعقبه من قرون . فتتبين له نتيجتين الأولى أن هذه الحياة العقلية للدولة الإسلامية كانت قوية خصبة ، والثانية أن هذه الحياة استوعبت إلى جانب الثقافة الدينية الثقافة الأدبية والفلسفية .

وأختار عبد الحميد العبادى الحياة السياسية للعرب إبان القرن الأول الهجرى . فللعرب منذ أيام الرسول ﷺ سياسة خارجية دقيقة ، ولهم أيضا سياسة داخلية متشعبة . وكلتا السياستين متأثرة بمؤثرات منها العربى ومنها الأجنبى . منها ما كان قبل الإسلام وما طرأ بعد الإسلام . والعناية بهذه الحياة السياسية أيام النبى ﷺ وقبله وبعده وتحليلها أمر واجب وهام .

وأختار طه حسين الحياة الأدبية للإسلام . تلك التى تحتاج إلى نوع آخر من الدرس الفنى واللغوى لمجريات الأحداث فى عصر النبوة وما بعده . ليقدم الخلاصة والمرآة لألوان أخرى من الحياة الإسلامية . لا تمس السياسة ولا تمس التفكير العقلى الخالص . وإن اشتركت معهما فى خاصية فإنما فى وجوب العناية بالتحليل الدقيق .

فإذا كان هذا السؤال : « من أى زاوية تكون البداية ؟ » قد توقف عنده السلف من الشيوخ والأساتذة . فقد كان كذلك بالنسبة لكاتب هذه السطور المتواضعة . حيث توقف وحار .. إلى أن كان حلول شهر رمضان المعظم بمثابة الحد الفاصل بينه وبين هذه الحيرة .

أن تكون بدايتنا وزاويتنا ومنهجنا فى أطار هذه الرحلة الممتعة مع هديه عليه الصلاة والسلام فى رمضان . أن نتتبع ذلك الهدى النبوى منذ المبعث حتى أن قبض إلى الرفيق الأعلى . راصدين منها ما كان فى شهر رمضان على وجه الخصوص قبل الإسلام وبعده .

إذن مع رحلة عنوانها « مع النبى فى رمضان » نحن على موعد معترفين ومؤكدين فى نفس الوقت أن ما نصنعه اليوم ليس بجديد نبتدعه . وكيف نصنعه أو نبتدعه أو نؤلفه ... ومجال العناية به والتأليف فيه متصل غير منقطع ؟ وأنه كموضوع فى حد ذاته ليس بالأمر الذى يقوم على تجارب حاضرة تهدم تجارب قديمة . أو فكرة يقيمها برهان قديم وينقضها برهان جديد . شأن النظريات العلمية التى يكون الإتصال بها . إتصال تجديد وتغيير وتبديل على مر السنين ! .

الكتابة هنا – فى جانب من السيرة النبوية – قائم على رواية الخلف عن السلف . والمحدثين عن الأقدمين . منذ زمن بعيد لعله منذ قام الإخباريون المسلمون الأوائل – كما رأينا – يتناقلون منها حتى وصلت إلى ابن اسحاق فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى . ليسجلها ويثبتها مدونة – فى سيرة نبوية شريفة – ابن هشام فى نهايات وبدايات القرنين الثانى والثالث الهجريين .

فمنذ البدء كان المشتغلون بكتابة السيرة النبوية محدثين وناقلين ثم جاء من بعدهم جامعون مبوبون ، ولما استوى للمتأخرين ما جمعه المتقدمون ، جاء دور الشرح والتعليق مع بقاء هذا التراث المحمدى الخالد ثابتا غير قابل لجديد فى جوهره . وكل إجتهاد فيه هو فى إختيار طريقة العرض والتناول .

ولذلك يقرر المحققون للسيرة والمؤرخون لها . أن المهتمين بها . ينقسمون إلى فريقين . فريق عاش فى ظل كتب الأولين يقرؤها ويتأملها ويجتهد فى شرحه وتعليقه حتى يقربها من عصره . وفريق صبغ أعماله بصبغة إبداعية . حيث جمع بين يديه كتب من سبقه فى تناول هذه السيرة ليخرج على الناس بعمل مؤلف مبدع . فى ظاهره له ، وفى حقبقته لغيره ممن سبقه فى ذلك .

ولهذا يمكن القول إستنادا إلى هذا الرأى إن متناول السيرة . هو فى الأصل قارئا . قرأ وتأمل ثم اجتهد فى البحث عن طريقة جديدة فى العرض والتناول .

وهذا عين ما حدث لى مع هذه الصفحات التالية . الاستفادة بكل ما قدمه المتقدمون من دراسات وأبحاث وإبداعات ، حتى يمكن القول بأنها لن تتعب الذين يريدون أن يردوا مادتها القديمة فى جوهرها وأصلها الجديدة فى شكلها وتناولها . إلى مصادرها الأولى وفى مقدمتها القرآن الكريم ، والأحاديث القدسية ، والأحاديث النبوية ، والسيرة النبوية لابن هشام ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، وبغية الوعاة للسيوطى ، وتاريخ الطبرى ، وتاريخ ابن كثير ، وعيون الأثر فى المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس ، والفهرست لابن النديم ، ومعجم البلدان لياقوت الحموى ، وإمتاع الاسماع للمقريزى ، وزاد المعاد فى هدى خير البلاد لإبن قيم الجوزية ، وإحياء علوم الدين للغزالى ، وتفسير المنار ، وفقه السنة للشيخ سيد سابق ، وفتاوى الدكتور عبد الحليم محمود ، وحياة محمد

للدكتور هيكل ، وعلى هامش السيرة للدكتور طه حسين ، وعبقرية محمد للعقاد ، وفجر الإسلام لأحمد أمين ، ومحمد الرسول البشر لتوفيق الحكيم ، ومحمد نبى البر لإبراهيم الأبيارى ، ومحمد رسول الله والذين معه للأستاذ السحار ، ومحمد رسول الحرية للشرقاوى ، إلى جانب هرم من الكتب لها صلة بالسيرة النبوية عامة ، وموضوع البحث خاصة ... وهو ما تزودت من فضله زادا يعلن عن نفسه كلما دعت الضرورة .

وقراءة هذه المصادر كانت بمثابة الأضواء الكاشفة التى يسرت لى تسجيل كل ما يتصل بهدى النبى ﷺ فى رمضان ، ثم ما اسعى اليه من معارف تتصل بحياة النبى ﷺ بوجه عام . ومن هذه وتلك تكونت صفحات مع النبى فى رمضان . كما تكوَّن لدى الأمل العظيم فى مستقبل الإسلام ... كقوة عالمية فى ميزان القوى العالمية . لأن هذا الدين قام فى الأصل على قيم ومبادىء تحق له أن يتبوأ مكانته الحقيقية وإن طال الزمن . هذه المكانة التى جعلته فى يوم من الأيام يقهر القوتين العظمتين فى العالم القديم ويؤذن بقيام حضارة عربية اسلامية تقوم على اساسها الحضارة الأوروبيه الحديثه □

الصـــوم
قبـــل
مبعثـــه

تحدثنا الكتب القديمة والحديثة معا . أن شهر رمضان شهر قديم الحرمة فى الجاهلية العربية ، قديم الشهرة فى الأمم والديانات السابقه على الإسلام . هذا الدين الذى فرض . صوم هذا الشهر دون غيره .

وحديث هذه الكتب حق بنص الآية الكريمة ﴿ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ فقد

كان من عادة العرب الأقدمين فى الجاهلية أن يصوموا أياما منه يبدأونها من منتصف شعبان أحيانا . تيمنا بالصيف وتقربا إلى آلهتهم أن تجعل الصيف موسما من مواسم الخصب والنماء . ولهذا فكثير ما تداولوه كمعنى فى أدبهم أو لغتهم .

ففى الأدب العربى القديم نقرأ للشيخ الباقورى فى كتابه « مع الصائمين » ما يسجله بأن العرب فى الجاهلية قبل البعثة المحمدية كانوا يعرفون للصيام معانى تداولوها فى شعرهم ونثرهم ورواها الأخلاف عن الاسلاف . ومن تلك المعانى الإمساك عن الحركة حيوانا كان الممسك أو جمادا أو إنسانا ، وكل ذلك فى عرف اللغة صيام . على سبيل المثال قال النابغة :

خيل صيام وخيل غير صائمة

تحت العجاج وخيل تعلق اللجما

هنا جعل الشاعر الخيل ثلاثة أنواع . نوع منها صائم قائم فى معتلفه لا يتحرك ، ونوع تحت العجاج والغبار فى ميدان المعركة ، ونوع ثالث متأهب لدخول المعركة فهو يعلك لجامه كما يمضغ بعض الناس العلك أى اللبان .

وهناك أبيات كثيرة من الشعر الجاهلى يفيد قولها صيام الريح وهم فى الحقيقة يعنون لصيام الريح ركودها وعدم حركتها كقولهم صامت الشمس فى أبيات أى يعنون أنها قامت فلم تبرح مكانها عند إنتصاف النهار . ويصفون البكرة بالصيام حين تقف وتستعصى على الدوران . فلا يخرج لهم الدلو من البئر على ما يقول شاعرهم :

شر الـدلاء الولغـة الملازمـــة

والبكـرات شرهـــن الصائمـــه

يعنى أن الدلو الصغيرة التى لا تفارق صاحبها لأنه لا يجد بديلا منها . هى شر الدلاء . وأن البكرة المستعصية على الدوران هى شر البكرات عند عرب الجاهلية .

وكما اطلقت العرب كلمة الصيام على الموضع الذى يقوم فيه الفرس دون حركة ، أطلقوا هذه الكلمة نفسها على الموضع فى السماء . الذى تظهر فيه الثريا للناظر كأنها معلقة لا تحول ولا تزول . لأنها فى عينيه ثابتة لا تتحرك . وهو قول إمرئ القيس يصف طول الليل متبرما به :

كأن الثريا علقت فى مصامها

بأمراس كتان إلى صم جندل

فإمرئ القيس يتخيل فى هذا البيت أن مجموعة النجوم المعروفة بالثريا ثابتة فى موضعها لا تتحرك فكأنها مربوطة إلى صخور صم بحبال من الكتان متينة الفتل .

وقد ورد الصيام فى القرآن الكريم بمعناه اللغوى فىّ قول الله تعالى على لسان السيدة مريم عليها السلام ﴿ إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ فالصوم فى هذه الآية يعنى الصمت والإمساك عن الكلام وهو يفيد أيضا بنص هذه الآية أنه كان معروفا قبل الإسلام .

كذلك كان العربى القديم ينعت رمضان بالناتق أى الناقة الولود أو أى مكيال السوائل اشارة إلى كرم هذا الشهر ، وحتى اسمه مشتق فى لغتنا العربية من الرمض وهو المطر الذى يأتى قبل الخريف فيجد الأرض حارة محترقة . إلا أن فريق آخر يرى أنه مشتق من الرمضاء أى شدة الحر . فيقولون رمضت قدمه أى احترقت من شدة الحر . وسمى بذلك للارتماض من حر الجوع والعطش . وقيل إنما سمى رمضان لأنه يرمض الذنوب ويحرقها بالأعمال الصالحة . وقيل أيضا لأن القلوب تأخذ فيه الموعظه والتفكير فى أمر الحياة الآخرة . كما تكتسب صخور الفيافى ورمالها من حرارة الشمس . وقيل أيضا كما يذكر الشاعر مصطفى عبد الرحمن فى رمضانياته أن العرب كانوا يرمضون اسلحتهم فى رمضان أى يدفنونها ، ويخفونها بين الحجارة استعدادا للحرب فى شوال قبل حلول الاشهر الحرم .

وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية أن رمضان مشتق من رمض أى مشتق من حرارة الصيف الذى يسبب حرارة الجوف من شدة العطش مما يدل على الفصل الذى وقع فيه هذا الشهر فى فصول السنة حينما كان العرب الأقدمين دائبين على محاولة التوفيق بين سنتهم والسنة الشمسية وذلك بالاستعانة بأشهر النسيء .

وهكذا نلحظ أن معنى الصوم من الناحية الأدبية واللغوية فى لساننا العربى ، وثيق الصلة بمعناه من الناحية الشرعية . فالصوم شرعا هو الإمساك عن المفطرات من طعام وشراب وغيرهما مع إقتران النية به من طلوع الفجر حتى غروب الشمس . وأن تمامه وكماله هو باجتناب المحظورات وعدم

وفى سفر الملوك : « ثبت أن النبى ايليا عليه السلام سار بقوة تلك الأكلة أربعين نهارا وأربعين ليلة إلى جبل يسمى حوريب » .

وفى سفر زكريا (الاصحاح الثامن) : « هكذا قال رب الجنود إن صوم الشهر الرابع وصوم الخامس وصوم السابع وصوم العاشر يكون لبيت يهوذا . ابتهاجا وفرحا وأعيادا طيبة فأحبوا الحق والسلام » .

وفى إنجيل متى (الاصحاح السادس) : « وأما أنت فمتى صمت فأدهن رأسك وأغسل وجهك لكى لا تظهر للناس صائما . بل لأبيك الذى فى السماء وأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية » .

وفى الاصحاح السابع عشر : « لما رأى عيسى عليه السلام فتى وأخرج منه الشيطان قال لأصحابه : وأما هذا الجنس من الشياطين فلا يخرج إلا بالصوم والصلاة » .

وفى إنجيل متى : « أن السيد المسيح عليه السلام صام أربعين يوما فى البرية . وأن الحواريين رضى الله عنهم كانوا يصومون عن اللحم والسمك والبيض واللبن » .

وفى رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنفوس (بالاصحاح السادس) : « بل فى كل شيء نظهر أنفسنا كخدام الله فى صبر كثير ، فى شدائد ، فى ضرورات فى ضيقات ، فى ضربات ، فى سجون ، فى اضطرابات فى أتعاب فى اسهار فى أصوام » .

وفى سفر الملوك : « ثبت أن النبى ايليا عليه السلام سار بقوة تلك
أكلة أربعين نهارا وأربعين ليلة إلى جبل يسمى حوريب » .

وفى سفر زكريا (الاصحاح الثامن) : « هكذا قال رب الجنود إن
صوم الشهر الرابع وصوم الخامس وصوم السابع وصوم العاشر يكون لبيت
يهوذا . ابتهاجا وفرحا وأعيادا طيبة فأحبوا الحق والسلام » .

وفى إنجيل متى (الاصحاح السادس) : « وأما أنت فمتى صمت
أدهن رأسك وأغسل وجهك لكى لا تظهر للناس صائما . بل لأبيك
الذى فى السماء وأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية » .

وفى الاصحاح السابع عشر : « لما رأى عيسى عليه السلام فتى
أخرج منه الشيطان قال لأصحابه : وأما هذا الجنس من الشياطين
فلا يخرج إلا بالصوم والصلاة » .

وفى إنجيل متى : « أن السيد المسيح عليه السلام صام أربعين يوما
فى البرية . وأن الحواريين رضى الله عنهم كانوا يصومون عن اللحم والسمك
والبيض واللبن » .

وفى رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس (بالاصحاح
السادس) : « بل فى كل شيء نظهر أنفسنا كخدام الله فى صبر كثير ،
فى شدائد ، فى ضرورات فى ضيقات ، فى ضربات ، فى سجون ، فى
اضطرابات فى أتعاب فى اسهار فى أصوام » .

هذه الأنواع المختلفة من الصوم جميعا . كانت معهودة فى الأمم القديمة والديانات السماوية . وكان منهم من يصوم عن أصناف من الطعام ، ومن يصوم عن الطعام والشراب ساعات ، ومن يصوم عنهما من مطلع النجم إلى مطلعه فى اليوم التالى ، ومن يصوم عن الكلام إلا أن يكون تسبيحا أو دعاء إلى الله .

* * *

أما هذا العصر الذى نحن فيه – كما يقول الأستاذ العقاد – فإنه بدعة العصور قاطبة فى الصوم . لأنه أكثر العصور صوما وأقلها صوما فى وقت واحد .

فهو أكثر العصور صوما . حين يصوم البطل الرياضى ليضمن الفوز فى حلبة الرياضة . أو حين تصوم المرأة الدهر كله طلبا للرشاقة ، أو حين يصوم الرجل فيجود بشحمه ولحمه طلبا للوجاهة الاجتماعية ، أو حين يصوم البعض احتجاجا على سياسة معينة ... وأن عصرنا أقل العصور صوما فى طلب الرياضة الروحية وما يشبهها . وأنه من أجل ذلك بدعة بين العصور .

* * *

وشهر الصوم فى الإسلام له تقدير خاص . فقد بلغ من تقديره أن النبى ﷺ قال : « نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان ، وأنزلت لتوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، والقرآن الكريم لأربع وعشرين من رمضان » معنى هذا أن كل الكتب السماوية نزلت فى شهر رمضان .

بل أنه بلغ من تكريم الإسلام لهذا الشهر وتفضيله على سائر الشهور أن البعض من مفكرى الإسلام وفقهائه يرون أنه اسم من اسماء الله . معللين ذلك أنه كلما ذكر قيل « شهر رمضان » ولم يذكروه مفردا مجردا بغير إضافة كما يقولون عن غيره من الشهور العربية « شعبان أو صفر أو المحرم » .

ويروى صاحب لسان العرب عن مجاهد رضى الله عنه كان يكره أن يجمع رمضان لأنه يجمع على وزن المؤنث السالم فيقال رمضانات . مؤكدا أن هذا لا يجوز مع اسم من اسماء الله عز وجل .

وهكذا عرف شهر رمضان فى الاسم ، وقبل الاسلام □ .

وصـــدقت

رؤاه .....

وكعادة أجداده العرب كان النبى ﷺ ينتزع نفسه بعيدا عن الناس فى رمضان . ليخلو بها هناك معتزلا متعبدا فى الصحراء . وما كان أسعده ﷺ حينما يخلو إلى نفسه مفكرا متأملا ما يجرى حوله فى مكة أو حول مكة والجزيرة العربية فى العالم القديم ... كان يستولى عليه شعور غريب هو الأطمئنان ، فكان يسير وحيدا بعكس ما كان عليه قومه . لا يسيرون فى الصحراء إلا فى كوكبة من الرجال الأشداء . وإذا إنفرد أحدهم اضطرارا ... أحس الوحشه والرهبه . ولكن رسولنا الكريم أحب هذا الخلاء الذى فيه تسبح نفسه متأملا متفكرا .

ترى فى ماذا كانت تسبح هذه النفس الكريمة متأملة متفكرة ؟ هل كانت تحدها حدود مكة وشعاب جبالها ؟ هل كانت تحدها حدود وتخوم الجزيرة العربية ؟ أم أن هذه النفس المطمئنة قد سبحت فى أمور أخرى ؟

تحدثنا الكتب المهتمة بالسيرة النبوية قديمها وحديثها فتذكر أنه لم تكن الجزيرة وحدها هى التى تعنيه . ومن المؤكد لم تكن مكة أيضا برجالها وجبالها ووديانها هى التى تعنيه أيضا . وإنما كان هناك ما يعنيه إلى جانب الجزيرة العربيه ومكة ... لقد طاف بخياله بالشمال والجنوب ، وعرف - ﷺ - الكثير عما يحدث فى بلاد الفرس والروم . والدولتان تمثلان القوتين الأعظم فى العالم القديم . ففى كل مكان من هاتين الدولتين الكبيرتين تهدر كرامة الإنسان ، ويسيطر الغيظ أحيانا ... حتى تمتد يد المرأة الحنون إلى قلب خصمها بعد أن يقتل فتأكل منه القلب الحى . وتلعق الدم !

فى هذا العالم القديم . مازال الملاك الكبار فى بلاد الروم - إحدى القوتين الأعظم - يصنعون بالرجال والنساء . ما يصنعه المرابون الكبار فى بلده مكة أو ما يصنعه الرؤساء والدهاقين فى بلاد الفرس ثانية القوتين الأعظم .

فى مكة والجزيرة العربية ، وفى بلاد الروم وبلاد فارس كان يقضى على الإنسان بإسم قوى الخفاء التى لا تقاوم ولا ترد . وهى قوى لا تشبع إلا من دم الضعفاء ، ولا تقتات إلا بالذلة والهوان ...

هى فى مكة تتخذ اسم الاصنام ، وفى بلاد الفرس تتخذ اسم

الآلهة والأرباب ، وفى بلاد الروم تتخذ اسم الاحبار والدهاقين ورجال الكهنوت الذى ينتسب زورا وبهتانا إلى الدين المسيحى .

فى هذا العصر القديم الذى كان يعيشه – عليه أفضل الصلاة والسلام – هان كل شئ حتى لقد وثبت إمرأة من أرصفة القسطنطينية إلى الملك . ونقلت صناعاتها من الحانات إلى عرش الامبراطورية الرومانية . وحولت الكنائس إلى أوكار للمؤامرات والمذابح . وأشاعت فى كل مكان جوا من الفوضى والأنحلال . حيث تحولت الامبراطورية الشامخة فى العالم القديم يوما إلى سوق واسع للرقيق الأبيض ... يحكمه النخاسون وتحول كل ما هو مقدس وكريم إلى مخدع للرذيلة .

وما يحدث فى بلاد الروم كان يحدث أيضا فى بلاد فارس . حيث ظهرت مذاهب أخرى غريبة ، وتجردت الأساطير الدينية من روحها القديمة . وفقدت النار والظلمة معانيها الرمزية يوما بعد يوم منذ أصبح وكلاء الالهة والأرباب هم ملاك الأرض والتجارة . وأصبح المتاع الحسى فوق كل إعتبار .

كان النبى الكريم يفكر فى كل ذلك ويتأمله ... ويأسى لما وصل إليه العالم القديم من فساد . حتى هذه القيم الروحية التى تزخر بها المسيحية ومن قبلها اليهودية ... لم تعد على حالها بعد . فقد تحولت هى الأخرى إلى عبادة للقديسين والشهداء . وتحولت سلطة الرب إلى القساوسة والكهان هم وحدهم الذين يفتحون أبواب الجنة وأبواب الجحيم ! حتى تحول الإعتراف الذى يكفر به الخاطئون والخاطئات عن

الذنوب إلى طريقة لإبتزاز المال تحت ضغط التهديد بإذاعة أسرار الأعتراف . لقد كان هذا التلويح بالفضيحة هو أسلوب رجال الدين لإبتزاز المال أو لإجتناء المتاع .

هكذا كان الفساد يخيم على العالم القديم وليس فى مكة وحدها أو فى الجزيرة العربية وحدها . وقد رأى عليه الصلاة والسلام أو سمع ذلك كثيرا . فكان يتأمله ويفكر فيه وهو ماضى فى طريقه إلى حيث معتزله فى رمضان . ولا يوقفه إلا مكان بأعلى الجبل . خال من كل اسباب الحياة وجد فيه غارا داخل الجبل . فكون فراغا لا يتسع إلا له . وقد كونت صخرتان كبيرتان ما يشبه المدخل . هذا الغار هو مقصده حيث كان يعتزل ويتعبد ويواصل التأمل والتفكير . وهو الذى سجل التاريخ اسمه بأحرف من نور حيث عرفناه فيما بعد بغار حراء .

لكن ما هذا الذى يقطع عليه – ﷺ – تأمله وتفكيره وهو فى طريقه من مكة إلى غار حراء ؟ إنه أمرا عجبا يصفه ابن هشام فى سيرته بأنه ولا شك علامة من علامات النبوة فيقول « إن رسول الله ﷺ حين أراده الله سبحانه وتعالى بكرامته وأبتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجة أبعد حتى تحسر (أى ابتعد) ويفضى إلى شعاب مكة وبطون أوديتها فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يارسول الله . فيلتفت رسول ﷺ حوله ، وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة . فمكث رسول الله ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء له أن يمكث ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه بعد ذلك من كرامة الله سبحانه وتعالى وهو بحراء فى شهر رمضان » .

هذه واحدة من علامات النبوة . وأما الأخرى فهى حيث تسود الروح الجسد فيقترب صاحبها من السماء . على اعتبار أن الإنسان يتكون من روح وجسد . أما الروح فهى نفحه من الله عز وجل وأما الجسد فحفنة من تراب . فإذا ساد الجسد الروح اقترب الإنسان من التراب ، وإذا سادت الروح الجسد اقترب صاحبها من السماء . وها هو رسولنا الكريم قد طهر الله جسده من كل رجس ودنس ، وأبعد عن قلبه كل زيف وكذب ، وجرد نفسه من كل ريبة وشك . ولهذا فلابد أن تسمو روحه جسده بل الأرض ومن عليها . ها هو - ﷺ - لا يهمه غذاء جسده بقدر ما يهمه غذاء روحه التى صفت وأمكنها أن تحلق فترى فى منامها هذه الرؤى الصادقة .

نعم لقد رأى فيها ... كأن أصنام الكعبة تسقط ، ودولة الطغيان تتقوض بكل ترفها المستبد من أقصى بلاد الروم إلى آخر بلاد الفرس . وكأن الناس قد تحولوا إلى بشر آخرين ، لا يرفع أحدهم السيف فى وجه أخيه . ولا تمتد بالعدوان على أحد . كلمة الحق ترتفع كالراية تظلل جموعا لا حصر لها من رجال شرفاء ، ونساء فضليات ، وأطفال سعداء . لم يعد الانسان مهدرا فى كرامته ، ممزقا فى كيانه . رأى وكأن هذا الجيل الذى يعيش فيه ، والذى يشرع ضروسه وأسنانه لأكل المساكين والفقراء .... تغير تماما ... وتخلت الذلة والهوان عن وجوه البسطاء والضعفاء .

رأى فيما رأى عليه الصلاة والسلام . أن أنوار الحقيقة التى تنشرها تنبلج أمام عينيه . لتحطم باطل هذه الحياة وزيفها . رأى نهاية لهذا

الضلال الذى يعيشه قومه وبداية للهدى والصلاح . رأى الحق واليقين يسيطران على قومه بعد أن افسدت حياتهم مذلة الخضوع للأوهام وما إليها من عقائد ليست إلا ضلالا . رأى بداية لعصر الإيمان بالواحد القهار ونهاية لعصر الكفر والشرك والوثنية . رأى كثيرا فيما كان يرى فى رؤاه وهى صادقة فهى علامة أخرى من علامات النبوة . فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « إن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من النبوة . حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به . الرؤيا الصادقة . لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح ... » .

وتتكرر فى نومه عليه الصلاة والسلام رؤاه . خصوصا إذا كان معتزلا متحنثا متعبدا فى رمضان حتى شارف الأربعين من العمر . وقد امتلأت نفسه إيمانا ، وقد خلصت تماما من الباطل ، وقد اتجه قلبه إلى الصراط المستقيم وإلى الحقيقة الخالدة ... اتجه إلى الله بكل روحه أن يهدى قومه فإنهم لا يعلمون . وهو فى توجهه هذا ... يقوم الليل ، ويطيل الصوم ، وتثور به الأفكار والتأملات . فينحدر عليه الصلاة والسلام من أعلى الجبل إلى الأودية والشعاب . ثم يعود بعد ذلك ليختبر ما يدور بذهنه وما يتبين له من رؤاه . ولقد طالت به هذه الحال . حتى خشى على نفسه عاقبة أمره . وكثيرا ما كان يستظهر زوجته خديجة رضى الله عنها بما كان يرى أثناء نومه فى غار حراء . وأنه يخاف عبث الشياطين . إلا أن هذه الزوجة العظيمة طمئنته وذكرته بأنه الصادق الأمين . وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه . تقول له ذلك مهدئة إياه . ولكن لم يدر بخاطرها ولا حتى

بخاطره عليه أفضل الصلاة والسلام أن الله سبحانه وتعالى . يهيىء مصطفاه بهذه الرياضة الروحية إلى اليوم العظيم . الذى فيه يحمل آخر رسالات السماء .

وعاودته هذه الرؤى الصادقة فى كل رمضان من كل عام حتى كانت ليلة مباركة فى العشر الأواخر من رمضان . فيها هبط ملك من السماء فى يده صحيفة ويحدث ما يحدث . ليكون من بعد الرسول البشر ولكن الذى يوحى إليه □

وحـــــى
يوحـــــى
اليــــه

وفى ليلة مباركة ... من الليالى العشرة الأخيرة من رمضان ... أغفى عليه الصلاة والسلام قليلا فنام كعادته بغار حراء ... فرأى فيما رأى مَنْ يعرض عليه صفحة ويطلب منه أن يقرأ . فقال له ما أنا بقارىء . ما قصة ذلك .؟ لنترك النبى ﷺ يقول ما ينقله ابن هشام فى السيرة النبوية .

قال رسول الله ﷺ : « جاءنى جبريل (عليه السلام) وأنا نائم ، بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : إقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ؟ ، فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال : إقرأ ، قلت : ماذا أقرأ ؟ فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى وقال : إقرأ ، قلت بماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا إفتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى . فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فقرأتها ثم انتهى فأنصرف عنى . وهبيت من نومى . فكأنما كتبت فى قلبى كتابا . وخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يامحمد ، أنت رسول الله ، وأنا جبريل . فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء ويقول : يامحمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل . فوقفت انظر إليه . فما تقدم وما تأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء . فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك . فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بَعَثَتْ خديجة رسلها فى طلبى . فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك . ثم انصرف عنى » ويقول النبى ﷺ ما يسجله ابن هشام : « وانصرفت راجعا إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلست ... إليها . فقالت ياأبا القاسم : أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لى . ثم حدثتها بالذى رأيت . فقالت أبشر ياابن العم وأثبت . فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة » .

ويقول ابن إسحاق ما يسجله ابن هشام « ثم قامت – خديجة – فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقه بن نوفل ، وهو ابن عمها . وكان قد تنصر وقرأ الكتب ، وسمع الكثير من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقه بن نوفل : « قدوس ، قدوس (أى طاهر طاهر) والذى نفس ورقه بيده ، لئن صدقتينى ياخديجة لقد جاءه الناموس (أى الوحى) الذى كان يأتى موسى . وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له : فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ وأخبرته بقول ورقه بن نوفل » .

ويقول ابن هشام : « فلما قضى رسول الله ﷺ حواره وانصرف . صنع كما كان يصنع بدأ بالكعبة فطاف بها ، فلقيه ورقه بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال له : يا ابن أخى أخبرنى بما رأيت وسمعت . فأخبره رسول اللهِ ﷺ . فقال ورقه بن نوفل : والذى نفسى بيده . أنك نبى هذه الأمة . ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى (عليه السلام) . ولتكذبنه ، ولتؤذينه ، ولتخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه . ثم أدنى رأسه منه . فقبَّل يافوخه (أى وسط رأسه) ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله » .

قال ابن إسحاق ما سجله بعد ذلك ابن هشام : أن خديجة رضى الله عنها قالت لرسول الله ﷺ : أى ابن عم ، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم . قالت : فإذا جاءك فأخبرنى به . فجاءه جبريل (عليه السلام) كما كان يصنع . فقال رسول

الله ﷺ لخديجة : ياخديجة ، هذا جبريل قد جاءنى . قالت : قم ياابن عم فاجلس على فخذى اليسرى . فقام رسول الله ﷺ فجلس ... قالت : هل تراه ؟ قال : نعم . قالت فتحول فأجلس على فخذى اليمنى . فتحوَّل رسول الله ﷺ فجلس على فخذها اليمنى . فقالت : هل تراه ؟ . قال : نعم ، قالت : فتحول فأجلس فى حجرى . فتحول رسول الله ﷺ فجلس فى حجرها قالت : هل تراه ؟ قال : نعم . فتحسَّرت وألقت خمارها .ورسول الله ﷺ جالس فى حجرها . ثم قالت : هل تراه ؟ قال رسول الله ﷺ : لا . قالت خديجة رضى الله عنها : ياابن عم : اثبت وأبشر ، فوالله إنه لملَكٌ وما هذا بشيطان ... » .

وهكذا يصف النبى ﷺ أول لحظة تنزلت عليه أولى آيات القرآن الكريم فى صورة هذه الآيات الخمس . ونزول هذه الآيات الخمس على هذه الصورة يجسد لنا لقاء انتظم طبيعتين متغايرتين ، هما الطبيعة البشرية لسيدنا محمد ﷺ ، والطبيعة الملائكية لجبريل عليه السلام . لا ريب أن يكون له صداه فى نفس رسولنا الكريم . ولعل ما بدا من هذا الصدى هو الرجفة والخوف . حتى أنه إذا جاء إلى زوجته إبتدرها مرتعدا وقائلا : زملونى . فزملته وهو يرتعد كأن به الحمى . فلما ذهب عنه الروع نظر إلى زوجته نظرة العائذ المستنجد وقال : ياخديجة مالى . وأفضى إليها بمخاوفه . فكانت خديجة نعم الزوجة فلم تكتف بما أخبرها به ابن عمها ورقه بن نوفل وإنما قامت بإختبار ما سمعته من الرسول ﷺ . وهذا الإختبار – كما رأينا من حديث ابن هشام – غاية ما كان ينتظر من سيدة فى عصرها أن

تمتحن به حقيقْة الوحى : ولا غرابة فيه عند المسلم وغير المسلم فى العصر الحاضر . فإن البديهة لا تشتغل بالوحى الدينى والنظر إلى جسد الأنثى فى وقت واحد . ولاسيما بعد الحوار وإعادة السؤال مرة بعد مرة .

ثم إن هذا اللقاء الخالد والعظيم الذى انتظم طبيعتين متغايرتين إحداهما بشرية والأخرى ملائكية . ينبغى أن ندرك منه أن الرسول ﷺ بشر مثلنا . نعم بشر مثلنا . ولا يجول بخاطر أى منا خروجه عليه الصلاة والسلام عن البشرية . لكنه بشر يوحى إليه بنص الآية الكريمة : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الى ﴾ .

وهذا هو الفارق بين بشريته عليه أفضل الصلاة والسلام وبشريتنا نحن . هو عليه الصلاة والسلام بشر مثلنا . ولكن سادت روحه جسده فأقترب من السماء . هو عليه الصلاة والسلام بشر مثلنا ولكن هو قطعة من نور . صفاء نفس ، وطهارة قلب ، وتزكية روح . هو عليه الصلاة والسلام بشر مثلنا ولكنه ما ينطق عن الهوى . هو عليه الصلاة والسلام بشر مثلنا ولكنه مصطفى من رب العالمين ليرسله رحمة للناس كافة ، هو عليه الصلاة والسلام بشر مثلنا ولكن يخاطبه الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ . هو عليه الصلاة والسلام بشر مثلنا ولكن يوحى إليه فى ليلة مباركة من ليالى رمضان .

ويتكرر نزول الوحى عليه . بآيات من الذكر الحكيم . وفى واحدة منها تعوده خديجة رضى الله عنها وهو – عليه الصلاة والسلام لا يزال نائما . وفيما هو فى هدأة نومه إذ به يهتز ويثقل تنفسه ، ويبلل العرق

جبينه ، ويقوم ليستمع إلى جبريل يوحى إليه : ﴿ يا أيها المدثر ، قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فأهجر ﴾ .

وتراه زوجته بهذه الحالة ... فتشفق عليه وترجوه أن يعاود النوم فيكون جوابه عليه أفضل الصلاة والسلام : « انقضى ياخديجة عهد النوم والراحة فقد أمرنى جبريل أن أقوم وأنذر الناس وأن أدعوهم إلى الله وعبادته » . ويتوالى نزول القرآن الكريم . بعد ذلك □

القـــرآن

معجـــزته

ويتحقق ما كان قد تنبأ به ورقة بن نوفل . من أن زوج إبنة عمه هو بعينه نبى هذه الأمة .

وطبيعى أن تتوالى نزول سور القرآن الكريم ، وتستمر منذ بدأت فى هذه الليلة المباركة من رمضان . فترة تقدر فى حساب الزمن بثلاثة وعشرين عاما ، وأن تصير كتابا مبينا هو دستورنا إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ... كتابا يتضمن ١١٤ سورة ، تشتمل على ٦٢٢٦ آية

كريمة ، وتحوى آياته الكريمة ٧٧٤٣٩ حرفا . كل حرف فيه يحمل معنى عظيما ودلالة كبرى . بل وعطاء كريما . لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق . ذلك هو القرآن الكريم . الذى جاء للدنيا كافة وليس للعرب خاصة . فلم يقتصر على أمة بعينها وإنما هو لكل البشر . ولم يكن للعصر الذى نزل فيه أى عصر النبوة . وإنما لكل العصور وهذا هو سر إعجازه .

ولذلك فالقرآن على هذا النحو ... هو معجزة النبى ﷺ . أما كيف يكون ذلك ؟ للإجابة علينا أن نقرأ إلى جانب الكتب المهتمة بالسيرة النبوية ثلاثة كتب هى « اعجاز القرآن » و « معجزة القرآن » و « القرآن فى شهر القرآن » الأول لكاتب كبير هو مصطفى صادق الرافعى ، والثانى لداعية ومفكر اسلامى كبير هو الشيخ محمد متولى الشعراوى – أطال الله فى عمره – ، والثالث للأمام الشيخ الدكتور محمد عبد الحليم محمود . وقد باعدت بين تأليف هذه الكتب الثلاثة السنين التى قد تصل فى بعض الأحيان إلى أكثر من النصف قرن . ولكن نظرة الجميع واحدة تؤكد أعجاز هذا الكتاب المبين فى كل عصر وفى كل زمان .

وقبل أن نتحدث عن اعجاز القرآن ومعجزات الرسل والأنبياء قبل النبى ﷺ وكيف كان القرآن معجزته . علينا أن نتعرف أولا على معنى المعجزة .

والمعجزة كما يرى الشيخ الشعراوى هى خرق لنواميس الكون ، أو لقوانين الطبيعة . يعطيها الله سبحانه وتعالى لرسله ليدل على منهجه

ويثبتهم به . ويؤكد للناس أنهم رسله الذين تؤيدهم السماء وتنصرهم . والسماء حين تنصر وتؤيد ، تقف قوانين البشر عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئا .

ومعجزات الله تتميز عن أية معجزات أخرى تمييزا واضحا قادرا فهى أولا تأتى وتتحدى من أرسل فيهم الرسول فيما نبغوا فيه . لماذا ؟ لأن التحدى فيما لا ينبغ فيه القوم لا يعتبر تحديا . فمثلا إذا جئنا ببطل فى رفع الأثقال ، وتحدينا به رجلا عاديا لا يكون هناك مجال للتحدى . لماذا ؟ لأن المتحدى لم ينبغ فى نفس جنس العمل الذى أريد أن يتم فيه التحدى . ولكن إذا جئنا ببطلين من أبطال العالم فإن التحدى يكون بينهما واضحا . ويكون له معنى فيمن يثبت أنه هو الأقوى وهو الأقدر .

على أن هذه المعجزة لا تأتى فقط بخرق القوانين الكونية ، أو التحدى . وإنما توفر أسباب هذا التحدى . بمعنى أن القوم الذين يريد الله سبحانه وتعالى أن يتحداهم . يمكنهم من الأسباب كلها ثم بعد ذلك يعطل الأسباب فلا يتم الفعل كما سترى حين يشرع الأنبياء والرسل بدعوة أقوامهم . فتجد هذه الدعوة الاعراض والتكذيب . لاسيما حين تدعوهم إلى ترك معتقداتهم التى وجدوا عليها أباءهم وأجدادهم . ولذلك كانت الدعوة مهمة شاقة وأمرا عسيرا إذ كان لابد أن يقدم النبى أو الرسول لقومه الدليل الكافى على أنه مبعوث من خالق السموات والأرض ومن فيهما . وكانت هذه الأدلة لابد أن ترقى إلى درجة هذه المعجزات التى يخص بها الله كل رسول أو نبى بحيث تكون من جنس ما اشتهر به قومه حتى

يمكن أن يعرضوا هذا الدليل على عقولهم ويقارنوا بين ما أتى به الرسول وما أتوا به هم .

لقد اشتهر قوم موسى . وكان عصره يسمى عصر السحرة وبلغ من سحرهم أنهم اجتمعوا لسيدنا موسى عليه السلام والقوا أمامه حبالا خُيل للناس أنها حيات تسعى . فلما ألقى عصاه إهتزت هي الأخرى وتحركت وابتلعت حبالهم . هنا جاء موسى عليه السلام بمعجزة هي من جنس ما نبغوا فيه وهي السحر . بها تحدى قومه فكان أول من آمن به هم السحرة أنفسهم لماذا ؟ لأنهم هم الذين يرهبون عيون الناس ويسحرونها . فلما رأوا معجزة موسى عليه السلام كانوا أقدر الناس على فهمها والسجود لها نظرا لما رأوه من الفرق الهائل بين قدرة الله وقدرة البشر بنص الآية : ﴿ فالقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾.

وأشتهر عصر السيد المسيح عليه السلام بتقدم الطب . فما من جماعة تجتمع إلا وحديثها يكون عن الطب . ولذلك كانت معجزة عيسى عليه السلام هي من جنس ما يتقنه قومه وينبغوا فيه كأن يبرىء الأكمه ، والأبرص ويرد البصر للأعمى بإذن الله . بل استطاع أن يحيي – بإذن الله – الموتى ولهذا آمن به قومه لأنه استطاع أن يفعل ما لا يستطيعون هم فعله بأمر الله .

ومن قبل موسى وعيسى عليهما السلام أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام . حقق معجزة أيضا . وذلك حين إجتمع عليه قومه وأوقدوا نارا ليحرقوه . وبالفعل أتوا به وألقوه فيها أمام آلهتهم . كان يمكن أن يختفي

إبراهيم ، أو النار تنطفىء قبل أن يلقوه . إلا أنه لم يحدث هذا ولا ذاك . القوا به وإذا النار تزداد اشتعالا . لكن الخالق عز وجل يبطل مفعولها . لتكون بردا وسلاما . وليكون ما يحدث معجزة من إبراهيم عليه السلام لقومه فيؤمنوا به .

ومن بعدهم جميعا جاء محمد ﷺ ليكون للبشر كافة . وعلى هذا فلابد أن يكون إعجازه أولا من جنس ما نبغ فيه قومه وثانيا أن يكون القرآن الذى أتى به متخطيا زمانه ومكانه .

فالقوم الذى نزل فيهم القرآن . بلغ أفراده مبلغا من الفصاحة ما لم يعرف فى تاريخهم من قبل . كانوا قد أطالوا الشعر وافتنوا فيه . حتى كان من بينهم شعراء الواحد منهم يماثل عصرا بأكمله ثم كان لهم من تهذيب اللغة بشكل جعل الكلمة نافذة فى كل بقاع الجزيرة لا يصدها اختلاف من اللسان ولا يعترضها تناكر فى اللغة . فقامت منهم بذلك دولة الكلمة . ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن ليكون ملكها على مر الزمان وكأن العرب بأدبهم وفصاحتهم كانوا يعدون أنفسهم للقاء هذا الكتاب المبين . أو كما عبر الرافعي قائلا : « كل من يبحث فى تاريخ العرب وآدابهم ، وينفذ إلى ذلك من حيث تنفذ به الفطنة ، وتتأتى حكمة الأشياء فإنه يرى كل ما سبق القرآن إنما كان توطيدا له وتهيئه لظهوره وليس فى الأرض أمة كانت تربيتها لغوية غير أهل الجزيرة العربية » .

إذن لقد ملك القرآن سر الفصاحة العربية ، وجاءهم منها بما لا قبل لهم برده . ولا حيلة لهم معه . فأستبد بإرادتهم وغلب على طباعهم

وحال بينهم وبين ما نزعوا اليه من خلاف . حتى انعقدت قلوبهم عليه وهم يجهدون فى نقضها ، واستقاموا لدعوته وهم يبالغون فى رفضها . فكانوا يفرون منه فى كل وجه ثم لا ينتهوا إلا اليه . إذ يرونه قد أخذ عليهم بفصاحته وإحكام أساليبه جهات النفس العربية .

ولو أن هذا القرآن غير فصيح ، أو كانت فصاحته غير معجزة فى اساليبها التى القيت اليهم . لما نال منهم على الدهر منالا . ولخلا منه موضعه الذى هو فيه . ثم لكانت سبيله بينهم هو نفس سبيل القصائد والخطب والاقاصيص . وإذا لم يكن القرآن موجود فيهم باكثر معانيه قبل أن يوجد فيهم بألفاظه واساليبه لنقضوه كلمة كلمة وآية آية . دون أن تتخاذل أرواحهم أو تتراجع طباعهم ولكان لهم وله شأن غير ما عرف . ولكن الله بالغ أمره . وكان أمر الله قدرا مقدورا .

* * *

ولكى يتخطى القرآن فى معانيه زمانه ومكانه لابد أن يختلف عن غيره من المعجزات . وفى القرآن إعجاز لا يتنبه اليه العقل إلا بعد أن ينشط ويكتشف المستور عنه من حقائق الكون واسراره حينئذ يتبين أن للقرآن وجوه إعجاز أخرى أو جديدة تزيد فى معنى الإعجاز ، أو تعطى أبعادا جديدة لما يقال .

إن للقرآن عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه للجيل السابق ذلك أن القرآن للعالمين . ومن هنا يجب أن يكون له عطاء لكل جيل . وإلا لو أفرغ القرآن عطاءه الإعجازى فى قرن من الزمان . لأستقبل القرون الأخرى بلا عطاء . إن هناك آيات من القرآن تعطينا عمقا جديدا

فى معناها ذلك العمق لم يكن أحد يصل اليه بالفهم الدقيق فى أول نزول القرآن .

* * *

معجزة أخرى للقرآن هو أنه يعطى لكل عقل قدر حاجته . فترى غير المتعلم يطرب للقرآن ويجد فيه ما يرضيه . ونصف المتعلم يجد فى القرآن ما يرضيه . والمتبحر فى العلم يجد فى القرآن ما يرضيه ويحرك تفكيره .

ومعجزات أخرى من مجموعها يكون ذلك الكتاب معجزة بها يواجه النبى الكريم قومه وزمانه وغير قومه وما بعد زمانه □

وفـــاة
أم
أولاده

وفى رمضان السنة العاشرة للبعثة المحمدية ... ماتت خديجة بنـ
خويلد رضى الله عنها وزوجة النبى ﷺ وأم أولاده . وأم المؤمنين كما يعرفه
التاريخ الإسلامى . ماتت خديجة رضى الله عنها بعد أن جاهدت م
زوجها النبى عشر سنوات كان آخرها فى الحصار والتى تركت آثاره
السيئة على صحتها . فلم تلبث طويلا بعد عودتها إلى بيتها حتى توفاها اا
قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنوات .

وما أعظم هذه الزوجة حين وقفت إلى جوار زوجها العظيم تتحمـ

معه بمفردها أعباء هذه الرساله مثبتة إياه ، مؤمنة به وبرسالته حتى فى هذه الساعات التى صاحبت نزول الوحى لأول مرة . كانت تطمئنه وهو يقول لها : « لقد خشيت على نفسى » فيسمع عليه أفضل الصلاة والسلام منها هذه الكلمة الخالدة : « والله لا يخزيك الله أبدا . أنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث وتحمل الكل ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » .

وما أعظم ذكاء هذه الزوجة حين كانت تخفف عن النبى ﷺ أعباء الوحى . وكأنها أدركت بفطرتها حقيقة الدين . فعلمت أنه فضيلة . فقامت كما رأينا بإختبار الوحى كما هداها إلى ذلك تفكيرها . ولتقول للنبى ﷺ عن جبريل عليه السلام « ياابن عم . اثبت وأبشر ، فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان » .

وما أروع هذه الزوجة الحنون . التى عز عليها أن توقظ زوجها النبى ﷺ لتبشره بما قاله ابن عمها ورقه بن نوفل بأنه نبى هذه الأمة — فتجلس بالقرب من فراشه عليه أفضل الصلاة والسلام . منتظرة حتى يستيقظ من نومه . لكنها تلحظ أمرا آخر . فالنبى أمامها ينتفض فى فراشه ، وتتثاقل أنفاسه ، ويتفصد العرق جبهته ويظل على ذلك فترة قبل أن تعاوده سكينته وتنتظم أنفاسه ويبدو عليه كأنما يصغى إلى درس يستعيده حتى يستيقظ بعد أن يكون قد فرغ من لقاء جبريل عليه السلام . وهنا تزف اليه البشرى التى سمعتها من ابن عمها ورقه بن نوفل فيرنو إليها النبى ﷺ بنظرة تفيض شكرا وإمتنانا لهذه الزوجة التى ملأت دنياه أمنا وسلاما وحنانا ثم ينظر إلى فراشه ويقول متأثرا : انتهى ياخديجة عهد النوم والراحة فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس وأن ادعوهم إلى الله وإلى عبادته . فمن

ذا أدعو ومَنْ ذا يستجيب ؟ وكانت أول مَنْ آمن بمحمد ﷺ من النساء فهتفت خديجة رضى الله عنها فى إيمان مطلق : « أنا أستجيب يامحمد . فأدعنى قبل أن تدعو أى إنسان ، وإنى لمسلمة لك ، مصدقة برسالتك ، مؤمنة بربك » .

وما أسمى مكانة هذه الزوجة التى يقرئها جبريل السلام فكما يحدثنا ابن هشام فى السيرة النبوية يقول : « إن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ : فقال اقرىء خديجة السلام من ربها . فقال رسول الله ﷺ : ياخديجة هذا جبريل يقرئك السلام من ربك فقالت خديجة رضى الله عنها : « الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام » .

وما أصدق إيمان هذه الزوجة العظيمة حين فقدت وليدها الذى لم يستكمل رضاعته . فقال لها النبى ﷺ مهدئا إياها : إن له مرضعا فى الجنة . فقالت : لو أعلم ذلك لهون علىَّ . فقال النبى ﷺ : إن شئت اسمعتك صوته فى الجنة فقالت : بل أصدق الله ورسوله » .

وما اكرم هذه الزوجة العظيمة حين تتحدث عنها بديلتها ومن احتلت مكانا لها فى بيت النبوة وهى عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنهما حيث تقول : « كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة (رضى الله عنها) فيحسن الثناء عليها . فذكرها يوما من الأيام فأدركتنى الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوُزا . فقد أبدلك الله خيرا منها . فغضب رسول الله ﷺ حتى إهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال : لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها . آمنت بى إذ كفر الناس ،

وصدقنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها أولادا إذ حرمنى أولاد النساء » قالت عائشة رضى الله عنها : فقلت فى نفسى ألا أذكرها بسيئة أبدا » .

وها هو محمد ﷺ الزوج الكريم يتلفت حوله بعد رحيلها . فإذا الدار موحشة خلاء ، وإذا مكة تنبو به وإذا الأرض كلها وقد ضاقت من كل حدب وصوب . .

ها هو النبى عليه أفضل الصلاة والسلام تبلغ به متاعبه أقسى مداها فى عام موت خديجة رضى الله عنها الذى سمى بعام الحزن . اشارة إلى موتها وموت عمه أبو طالب . حتى خيل اليه وإلى من حوله بل وخيلت إلى اعدائه المشركين أن الظلمات تكاثفت حوله ، فما عاد يبدو على الأفق شعاع من ضياء . إلا أن أمانيهم كذبتهم فظنوا به الظنون .

ها هو النبى ﷺ وقد فرغ منذ قليل من دفن الزوجة الحبيبة أم أولاده بعد رقاد لم يدم طويلا . لم يفارقها فيه لحظة من ليل أو من نهار إلى أن اسلمت روحها إلى بارئها .

منذ قليل جهزت خديجة رضى الله عنها . فحمل المسلمون نعشها وساروا به فى الطريق الذى طالما قطعته أم المؤمنين فى جاهليتها وفى اسلامها . ومن حولها إماؤها إلى الحرم وكان وجوه قريش وسادات مكة من مسلمين وكافرين يسيرون وراء نعشها مطرقى الرؤوس ، يسيرون فى هدوء . وقد غمرتهم الاحزان فمنذ ثلاثة أيام قبروا أبا طالب . وها هم ينطلقون اليوم لقبر أم المؤمنين .

وسار الجمع إلى الجحون - حيث تدفن - زوجه رسول الله وقد ثارت العواطف فى الأفئدة . وكان رسول الله ﷺ الذى الف الله به إخوانا ، وفرق أقرانا . وأعز به الذلة ، وأذل به العزة يسير فى مقدمة السائرين مستشعرا كأنما يودع قطعة عزيزة من نفسه . أو جزءا أصيلا من سويداء قلبه .

وفى الجانب الآخر كانت جموع المسلمين تسير بقلوب باكية . فللراحلة الكثير من الأفضال على الجميع .

وأمام القبر اشتد النحيب حتى تجاوبت جبال مكة التى تطل على الجحون . والتف المسلمون برسول الله ﷺ وهم يذرفون الدمع . وعندما دلى الجسد الطاهر قبره جزع المسلمون لرؤية نبيهم الكريم وقد خنقته عبراته . وبين غمضة عين وانتباهتها غيبت فى الثرى أول من أشرق قلبها بنور اليقين بعد رسول الله ﷺ .

ها هو النبى ﷺ وقد عاد لتوه من مدافن الجحون ينظر فى كل أركان هذا البيت الذى تأسس على الصدق والوفاء والاخلاص وإنكار الذات والتضحية وكل ما هو جميل فى الحياة ... ينظر لعله يجد رفيقة حياته خديجه رضى الله عنها . التى خطفها الموت من امامه منذ قليل . نعم الموت . وهل هناك غير الموت ما يمكن أن يفرق بينهما . فتتركه بلا نصير يلاطم أمواج الحياة وحده . وحانت من الرسول التفاتة إلى ابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها . فأحس كأن كبده تكاد أن تنفطر وزاد من كربه أنه فطن إلى أن إبنته الحبيبة الرقيقة قد عرفت الموت فى وجه أمها . فراحت تغالب دموعها حتى لا تؤذى ببكائها من كانت تغمرها بالحب والحنان .

أفى عام واحد بل فى ثلاثة أيام أى فى ساعات يفقد عمه أبو طالب وزوجته خديجة رضى الله عنها ؟ أيفقد فى ساعات الحماية والرعاية . صحيح إن موت أبى طالب كان فاجعة لكن موت خديجة فهو كارثة . نعم كارثة تجرح قلبه جرحا لن يندمل . وشرد رسول الله ﷺ ، وفى وجهه أعمق الاسى وراح يقلب صفحات الماضى فى وجد وقد غلبته رقته فترقرقت الدموع فى عينيه .

* * *

هكذا ماتت خديجة رضى الله عنها . إلا أنها مازالت ماثلة أمام عينى زوجها الرسول ﷺ . ماتت وسيدخل بعدها بيت النبوة نساء أخريات . إلا أن مكانها من قلب صاحب البيت النبى ﷺ سيظل أبدا خالصا لهذه الزوجة الأولى . التى انفردت ببيت رجلها ربع قرن من الزمان كانت توليه فيها من عطفها وبرها . ومن رقة نفسها وطهارة قلبها وقوة إيمانها . وتقف إلى جانب زوجها النبى ﷺ تنصره وتشد ازره ، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى وأقصى أنواع العذاب □

جبريل يعلمه

الصـــلاة

وتتوالى نزول آيات القرآن الكريم ، على النبى ﷺ . وتبدو معالم المجتمع الإسلامى الجديد القائم على الإيمان بالله الواحد ، وبرسوله عليه الصلاة والسلام . ويجيء رمضان ويمضي عام بعد عام قبل الهجرة حاملا معه أحداثا جديدة من بينها بدء المسلمين فى تأدية الصلاة ركعتين ركعتين . فالصلاة أول ما بدأت كانت هكذا . حتى تتقرر الفريضة على النحو المعروف الآن فى الصلوات الخمس . التى تقررت بعد ذلك فى ليلة الإسراء والمعراج قبل الهجرة بعام .

ويقول ابن إسحاق عن هذه الصلاة الأولى التى بدأت – فى رمضان – ركعتين ركعتين . ما يسجله بعد ذلك ابن هشام فى السيرة النبوية : « عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت إفترضت الصلاة على رسول الله ﷺ ركعتين ركعتين . ثم إن الله تعالى أتمها فى الحضر أربعا . وأقرها فى السفر على فرضها الأول ركعتين » .

ويعلق السهيلى على ذلك قائلا : « إن الصلاة قبل الإسراء كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة بعد طلوعها . ويشهد لهذا قوله سبحانه وتعالى ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشى والأبكار ﴾ » .

وأتفق مع رأى السهيلى رأى يحيى بن سلام حيث قال : « كان الإسراء وفرض الصلوات الخمس . قبل الهجرة بعام . فعلى هذا يحتمل قول السيدة عائشة رضى الله عنها (فزيد فى صلاة الحضر) أى زيد فى الصلاة ركعتين ركعتين حين اكملت خمسا على النحو الذى رأينا . فتكون الزيادة فى الركعات وفى عدد الصلوات ... ويكون قولها رضى الله عنها « فرضت الصلاة ركعتين ركعتين أى قبل الإسراء » .

وقد قال بهذا أيضا طائفة من السلف الصالح منهم إبن عباس رضى الله عنه حيث قال : « ويجوز أن يكون معنى قول السيدة عائشة رضى الله عنها (فرضت الصلاة) أى ليلة الإسراء حين فرضت الخمس فرضت ركعتين ركعتين ثم زيدت فى صلاة الحضر بعد ذلك . وهذا هو المروى عن بعض رواة الحديث عن السيدة عائشة رضى الله عنها » .

وممن رواه عن السيدة عائشة أيضا الحسن والشعبى بأن : « الزيادة فى صلاة الحضر كانت بعد الهجرة بعام أو نحوه ... » .

وقد ذكره البخارى عن رواية معمر ، عن الزهرى ، عن ابن الزبير عن عائشة قالت : « فرضت الصلاة ركعتين ركعتين ثم هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ففرضت أربعا » .

وهنا يطل سؤال : « أهذه الزيادة فى الصلاة نسخ (أى رفع الحكم) أم لا ؟ فيقال : أما زيادة ركعتين أو ركعة إلى ما قبلها من الركوع حتى تكون صلاة واحدة فنسخ وقد إرتفع حكم الإجزاء من الركعتين ، وصار مَنْ سلَّم منهما عامدا أفسدهما . وإن أراد أن يتم صلاته بعدما سلم . وتحدث عامدا لم يجزه . إلا أن يستأنف الصلاة من أولها . فقد ارتفع حكم الإجزاء بالنسخ وأما الزيادة فى عدد الصلوات حين اكملت خمسا بعدما كانت إثنتين . فيسمى نسخا على مذهب ابى حنيفة . فإن الزيادة عنده على النص نسخ . وعند جمهور المتكلمين ليس بنسخ » .

* * *

لكن كيف تعلم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة ؟ يسجل ابن هشام ما رواه ابن اسحق حيث قال : « وحدثنى بعض أهل العلم . أن الصلاة حين افرضت على رسول الله ﷺ . أتاه جبريل عليه السلام ، وقد كان عليه والصلاة والسلام بأعلى مكة . فهمز له بعقبه فى ناحية الوادى . فأنفجرت منه عين ، فتوضأ جبريل عليه السلام ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ، ليريه كيف الطهور للصلاة ، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل عليه السلام يتوضأ . ثم قام به جبريل

فصلى به ، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته ، ثم انصرف جبريل عليه السلام » . ويكمل ابن هشام ما رواه ابن اسحاق فيقول : « فجاء رسول الله ﷺ خديجة رضى الله عنها . فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة ، كما أراه جبريل عليه السلام . فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ ثم صلى بها كما صلى به جبريل فصلت صلاته .

وعن الوضوء قال زيد بن حارثة : « أن رسول الله ﷺ ، أول ما أوحى إليه ، أتاه جبريل عليه السلام فعلمه الوضوء ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه عليه الصلاة والسلام » .

لكن حين فرضت الصلاة فى ليلة الاسراء والمعراج كصلوات خمس على النحو الذى نعرفه الآن من أى هذه الأوقات بدأ تعليم جبريل عليه السلام للنبى صلى الله عليه وسلم بعد إقرار هذا الفرض ؟

عن ابن عباس رضى الله عنه ننقل روايتين إحداهما يسجلها ابن هشام فى السيرة النبوية والأخرى يسجلها الإمام الشافعى فى كتابه الأم . وتتفق الروايتان فى أن الصلاة بدىء تعليمها بالتحديد عند صلاة الظهر . إلا أن الإمام الشافعى فى نقله عن ابن عباس رضى الله عنه يشير إلى أن تعليم الصلاة على النحو الذى نعرفه اليوم حدث فى رمضان . ولننقل الروايتين معا .

فى السيرة النبوية لابن هشام . عن ابن عباس قال : « لما إفترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فصلى به (الظهر)

حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس ، ثم صلى به العشاء حين ذهب الشفق . ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر ، ثم جاءه فصلى به الظهر من غد حين كان ظله مثله ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالامس ، ثم صلى به العشاء حين ذهب ثلث الليل الأول . ثم صلى به الصبح مسفرا غير مشرق ، ثم قال : « يامحمد الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس » .

وفى كتاب الأم للإمام الشافعى عن ابن عباس قال : أن رسول الله ﷺ قال : « أمَّنى جبريل على باب الكعبه مرتين . فصلى الظهر حين كان الفىء مثل الشراك ، ثم صلى العصر حين كان كل شىء بقدر ظله ، وصلى المغرب حين أفطر الصائم ، ثم صلى العشاء حين غاب الشفق ، ثم صلى الصبح حين حرم الطعام والشراب على الصائم ، ثم صلى المرة الآخرة الظهر حين كان كل شىء قدر ظله ، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شىء مثليه ، ثم صلى المغرب القدر الأول لم يؤخرها . ثم صلى العشاء الآخرة . حين ذهب ثلث الليل ، ثم صلى الصبح حين أسفر ثم التفت فقال : يامحمد هذا وقت الأنبياء من قبلك فيما بين هذين الوقتين » .

ومن نَقْل الروايتين عن ابن عباس نعرف مواعيد الصلاة على زمن الرسول الله عليه الصلاة والسلام فالظهر عندما يكون ظل كل شىء مثله ، والعصر عندما يكون ظل كل شىء مثليه ، والمغرب عندما تغيب الشمس ويفطر

الصائم والعشاء حين يغيب الشفق فى الثلث الأول من الليل ، والصبح حين يكون مسفرا غير مشرق بعد الفجر ، بعد إمتناع الصائم عن الطعام والشراب .

ويجب أن نعلم أن أولية الصلاة فى وقت الظهر لا تعنى فضلا لهذا الوقت على غيره .

كذلك يجب أن نعلم أيضا أن تحديد أول صلاة أمَّ فيها جبريل النبى ﷺ يدل على حرص كامل من النبى ﷺ فى تسجيل هذا الركن العظيم من أركان الإسلام . وبيان التوجيه الالهى والعناية الكريمة بهذا الركن . حيث فرض من أرفع مكان ليلة الاسراء والمعراج ، فى أرفع موقف للرسول ﷺ . وتولى جبريل عليه السلام تدريب وتعليم الرسول بهيآته وأوقاته وكيفية إعداد المسلم لأدائه متطهرا .

وعن قيام صلاة التراويح فى رمضان روى البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ ذات ليلة فى المسجد فصلى بصلاته الناس ، ثم صلى من القابلة (أى الليلة التالية) فكثر الناس ، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة والرابعة حتى غص المسجد بهم . فلم يخرج اليهم رسول الله ﷺ . فلما أصبح قال : قد رأيت الذى صنعتم ولم يمنعنى من الخروج اليكم إلا أنى خشيت أن تفرض عليكم » . ولهذا تعتبر صلاة التراويح سنة حتى وفاة الرسول ﷺ ثم كانت هكذا فى خلافة أبى بكر وصدر خلافة عمر رضى الله عنهما . حيث روى البخارى عن عبد الرحمن القارى أنه قال : « خرجت مع عمر رضى الله عنه ليلة فى رمضان إلى

المسجد ، فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلى الرجل لنفسه ، ويصلى بصلاته الرهط . فقال عمر إنى أرى لو جمعت هؤلاء على قارىء واحد لكان أمثل . ثم عزم فجمعهم على (أبى بن كعب) . ثم خرج ليلة أخرى والناس يصلون لصلاة قارئهم فقال عمر : « نعمت البدعة هذه » ومن يومها وصلاة التراويح قائمة فى رمضان □

صــومه
فــى
عــام
القتــال

وفى يثرب معقل الإسلام وشوكته ، وبالتحديد فى العام الثانى للهجرة ، وهو فى التاريخ الإسلامى عام القتال . وفى فترة سكن فيها المسلمون إلى دينهم بعد عام مضى هو فى التاريخ الإسلامى عام الإذن بالهجرة إلى يثرب أو المدينة . بحلول العام الثانى وبالتحديد فى الثلاثين من شعبان يصبح الصوم فريضة اسلامية لها قواعدها ولها أحكامها . وليس كما كان من قبل ، ميراثا عن الأجداد ، أو نوعا من الوجاهة الإجتماعية التى

كان يمارسها سادة العرب وفتيان قريش الأقوياء . فى هذا العام – وهو عام القتال – كما سنري بعد قليل ، يتقرر الصوم كفريضة شأنه شأن الصلاة من قبل . أو كما روى ابن سعد فى طبقاته الكبرى بسنده عن ابن سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « نزل فرض شهر رمضان ، بعدما صرفت القبله إلى الكعبة بشهر فى آخر شعبان ، على رأس ثمانية عشر من هجرة رسول الله ﷺ » .

وهكذا أصبح الصوم فريضة واجبة بالكتاب والسنة والإجماع .

فأما الكتاب : فقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يأأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ .

وأما السنة : فقول سيدنا رسول الله ﷺ : « بُنى الإسلام على خمس . شهاده أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج البيت » .

وفى حديث طلحة بن عبيد الله أن رجلا سأل النبى ﷺ فقال : « يارسول الله أخبرنى عما فرض الله علىَّ من الصيام ؟ قال النبى ﷺ : شهر رمضان . قال السائل : هل علىَّ غيره ؟ قال النبى ﷺ : ألا أن تطوع » إشارة إلى أن صيام رمضان فريضة واجبة فى السنة .

والسنة : فقد أجمعت على وجوب صيام رمضان ، وأنه أحد أركان الإسلام الخمسة ، التى عُلِمت من الدين بالضرورة ، وأن منكره كشهر للصيام كافر مرتد عن الإسلام .

فقول الله سبحانه وتعالى فى شهر رمضان : ﴿ شهر رمضان الذى أُنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ . تأكيد من الله عز وجل بمنزلة هذا الشهر حيث أنزل فيه القرآن ، وأن هذا الكتاب انزل هدى للناس . والهداية هى نعمة الله تعالى التى أنعم بها على عباده ، وهذه النعمة تقتضى الشكر ، ويتمثل الشكر على الهداية فى عبادة تزكى النفس ، وتسمو بالروح ، وتستغرق الشهر كله ، هذه العبادة هى الصوم الذى يثمر التقوى .

ويقول الله تعالى عن ذلك : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ فصوم هذا الشهر الذى أنزل فيه القرآن إنما هو شكر على العبادة ، وهذا الشكر ليثمر التقوى ، والتقوى تثمر رعاية الله للمتقى فى كل ضيق كما يقول سبحانه وتعالى ﴿ ومن يتقى الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ .

وقول الله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ يقدم لنا الحكمة الأولى من الصيام . فإذا ما وّطن الإنسان نفسه على الصلاح والخير بعد أن مهد له الصوم إلى ذلك . وأعده ليسير فى سهولة ويسر فقد فاز بثمرة الصوم وهى التقوى . والتقوى هى تجنب المعصية الكبرى التى لا يغفرها الله وهى الشرك به سبحانه

وتعالى وكذلك تجنب مادونها من المعاصى ، هذا إلى جانب القيام بكل واجب إفترضه الله سبحانه .

وتأتى الحكمة الثانية التى من أجلها فرض الله سبحانه وتعالى الصوم والتى نلتمسها من قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ فقد أمر الله بالصوم بعد أن ذكر أن هذا الشهر نزلت فيه الهداية الكاملة ممثلة فى القرآن . فكان لابد أن نحتفل به . والأحتفال بشيء ما ، إنما يكون بما يناسبه . فالاحتفال بالهداية ممثلة فى القرآن إنما يكون بما يعد النفس ويمهدها لإستقبال هذه الهداية على خير ما ينبغى . وذلك هو الصوم فكأننا بالصوم إيمانا وإحتسابا نصل إلى مستويات من شفافية النفس وتطهيرها وتزكيتها .

وأما الحكمة الثالثة لفريضة الصوم فهى كما يرى الأمام عبد الحليم محمود فإننا نلتمسها فى قوله تعالى مختتما بعض آيات الصوم : ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾ فقد فرض الصوم لننتهى منه ونحن فى رحاب الله مغتبطين متبشرين ... قد تركت عنا النفوس ، وتطهرت منا الأفئدة . فيترتب على ذلك أن نكبر الله ونحمده على هدايته السماوية أولا . وعلى توفيقه لنا بإتمام الصوم ثانيا . ونشكره على كل ذلك فيزيدنا سبحانه بهذا الشكر هداية وتوفيقا .

ومن هذا كله يمكن أن ننبه إلى أمرين يتسم بهما الصوم . وهما قوة الإرادة ، وصرامة العزيمة . حتى يستقيم للمسلم بعد ذلك التحكم فى

نفسه راغبا بها فى تحصيل رضا الله وتجنب سخطه . وهى مسألة ، تعود ثمرتها على الفرد كما تعود على الجماعة إن هذه الفريضة التى تشرع الصوم للغنى والفقير هى من أحق الفرائض بالاعتبار والاعتقاد . حتى إن البعض يذهب إلى القول : إن الصوم طريق يشعر منه الأغنياء بحاجة الفقراء ، ويقول البعض الآخر : أنه تكفير عن الخطايا لعقاب الأجسام حتى تعانى ما تعانى من الجوع والظمأ . ويقول الثالث : إن الصوم تطهير للجسم وتنزيه للإنسان عن تحكم حاجاته الحيوانية من الطعام والشراب .

وهل هناك حكمة أجل وأنفع لهؤلاء المسلمين الأوائل المقبلين على إقامة مجتمع جديد فى قلب الجزيرة العربية فى نفس العام . من حكمة الصوم الجماعية التى تيسر للمسلمين فى كل مكان أن يتحولوا فى شهر رمضان إلى أسرة واحدة يتناولون طعامهم فى وقت واحد ، ويمسكون عنه فى وقت واحد ، ويؤدون شعائرهم الرمضانية فى وقت واحد .

إن هذه ملاحظة ، يدركها كل مَنْ تأمل أحداث العام الثانى للهجرة ، وعلى وجه الخصوص ما تم فى الشهر نفسه فى السابع عشر حيث كانت المواجهة الكبرى بين المسلمين والمشركين فى معركة بدر . لذلك حق لرمضان دون غيره أن يحظى بفضل كبير يردده نبينا ﷺ فى حديث قدسى : « قال الله عز وجل كل عمل إبن آدم له إلا الصوم فإنه لى ، وأنا أجزى عنه » .

وقد عبَّر سيدنا رسول الله ﷺ فيما كان يخطب به المسلمين عندما أهل عليهم هذا الشهر المبارك فى آخر يوم من شعبان حيث قال :

« يأيها الناس .... قد أظلكم شهر عظيم مبارك ، شهر فيه ليلة خير من الف شهر ، شهر جعل الله صيامه فريضة ، وقيامه تطوعا . من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه . ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه . وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة ، وشهر المواساة ، وشهر يزاد رزق المؤمن فيه ، مَنْ فطر فيه صائما كان مغفرة لذنوبه ، وعتق رقبته من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شئ .

قال المسلمون يارسول الله : ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم .

قال الرسول ﷺ : « يعطى الله وهذا الثواب من فطر صائما على تمرة ، أو على شربة ماء ، أو مذقة لبن . وهو شهر أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار ، مَنْ خفف عن مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النار فأستكثروا فيه من أربع خصال : خصلتين ترضون بهما ربكم ، وخصلتين لا غناء بكم عنهما .

فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إله إلا الله ، وتستغفرونه . وأما الخصلتان اللتان لا غناء عنهما فتسألون الله الجنة ، وتعوذون به من النار . ومن سقى صائما سقاه الله من حوضى شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة ... » .

وعلى هذا فرض صوم رمضان ، وأصبحت له أحكامه ومنها رؤية هلاله ، وقد كان سيدنا رسول الله ﷺ يتشدد فى إثبات هذه الرؤية .

فمن هديه كما يذكر الإمام ابن القيم : « أن الرسول ﷺ كان لا يدخل فى صوم رمضان إلا برؤية محققة بشهادة شاهد كما صام بشهادة ابن عمر رضى الله عنهما . أو بشهادة اعرابى جاء الرسول ﷺ وذكر أنه رأى هلال رمضان فقال النبى : « أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ؟ قال الاعرابى : نعم . فأمر النبى ﷺ بلالا فنادى فى الناس : صوموا . ثم قال عليه الصلاة والسلام : « صوموا لرؤيته . فإن غم عليكم فقدروا ثلاثين يوما ثم صوموا . ولا تصوموا قبله يوما » .

وهكذا كان الصوم فى عام القتال □

فـى بيتـه الإنسان والمعلـم

هذا البيت الكريم فى معناه ، المتواضع فى شكله ... شهد فى رمضان بعد الهجرة أحداثا جليلة وكبيرة . منها السعيدة المفرحة ، ومنها الأليمة المحزنة . فهذا البيت الذى لا تزيد حجراته عن الأربع . واحدة للنبى ﷺ وزوجته رضوان الله عليها . والثانية لولده رضوان الله عليهن ، والثالثة لتعبده وتهجده واستقبال وحى ربه سبحانه وتعالى والرابعة للقاء صحابته عليهم رضوان الله . وأن هذه الحجرات – كما تحدثنا الكتب قديمها

وحديثها – من الطين اللبن وبعض الأحجار وأن تأسيسه كما يصفه عمر ابن الخطاب رضى الله عنه « كان غاية فى التقشف . فهذا التأسيس يدخله القش والليف والحصر وسعف النخيل ... » هذا البيت لو شاء صاحبه ﷺ أن يجعل جدرانه من الماس والذهب والفضة ، وتأسيسه من الخز والحرير ... لتم له ذلك بأمر الله . هذا البيت على تواضعه وبساطته شاء ربك العلى القدير أن يشهد فى هذا الشهر المبارك ... شهر رمضان المعظم ... أحداثا ورجالا وأعمالا ومواقفا . منها جميعا قامت خير أمة أخرجت للناس .

فمن الأحداث السارة التى شهدها هذا البيت فى رمضان إنتصار الحق على الباطل فى بدر الكبرى . ولابد أن أهل هذا البيت قد سمعوا بمقتل رأس الشرك أبى جهل ، وأخيه العاص . وفى هذا البيت أيضا علت صرخات طفل ولد ليموت مسموما هو الحسن بن على وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم . ولابد أن هذا البيت وأهله قد شهدوا استعداد الرسول ﷺ لمواجهة هرقل قيصر الروم فى تبوك . ولعل جدران هذا البيت المتداعية غدت كما الحصون لتسد عن صاحبه النبى ﷺ الأذى والشرور من اليهود والمشركين ممن يريدون الخلاص من هذا الذى بعث رحمة للعالمين . ولابد أن هذا البيت قد سمع بيوم الفتح العظيم ودخول الناس فى دين الله أفواجا . وخبر مبايعة المسلمين لرسول الله ﷺ حين جاءوا فى رمضان . وأقاموا بجواره أياما ولابد أنه شاهد من هؤلاء من جاء يريد الشر بالرسول الأعظم فعاد إلى قومه وقلبه يمتلئ بالخير والإيمان .

ومع الأحداث السارة السعيدة كانت أيضا أحداث محزنة اليمة نعم لقد شهد هذا البيت النبوى أحداثا محزنة واليمة . فهذا نبأ وفاة ذات الهجرتين رقية إبنة الرسول ﷺ وزوجة عثمان بن عفان رضى الله عنه ... تموت فى هذا البيت دون أن ترى أبيها ﷺ الذى كان بعيدا عن البيت فى واحدة من الغزوات . كما سمع أهل هذا البيت باستشهاد الحمزة عم الرسول ﷺ فى إحدى الغزوات وكم كان وقع استشهاد الحمزة على البيت ومن فيه . فقد أعز الإسلام وناصره وأيده . فى وقت اجتمع زعماء الكفر والشرك على خزلانه وكذا استشهاد أربعة عشر صحابيا جليلا فى أوائل غزوات المسلمين الكبرى وهى غزوة بدر . وفى هذا البيت توفيت فى رمضان واحدة من أمهات المؤمنين هى زينب بنت حذيفة زوجة رسول الله ﷺ وأم المساكين كما ينعتها التاريخ الإسلامى . وفيه أيضا كانت وفاة إبراهيم إبن رسول الله ﷺ . ولابد أن جدرانه قد تأست وحزنت لحزن حبيب الله يوم بكى قلبه قبل عينيه على فراق هذا الإبن وقال قولته المشهورة : « ولكن لا نفعل ما يغضب الرب » . وأحداث أخرى تمت على مدى العشر سنوات التى قضاها الرسول الكريم إلى أن رفع إلى الرفيق الأعلى .

تمر هذه الأحداث بحلوها ومرها على هذا البيت الكريم . كما تمر أيام وليالى رمضان ... فيها نسجل – قدر الامكان – بعضا من هديه وتعاليمه وأقواله وتعبده فى هذا الشهر المعظم أيام وليالى رمضان فى هذا البيت الكريم تبدأ حيث ثبوت الرؤية . وهذا نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه يستقبل أولى هذه الليالى بالبشر والترحاب ، ويدعو المؤمنين لإستقباله والتهنئة بحلوله .

وتصطبغ الليلة الأولى السابقة على بداية صوم رمضان بملامح هذا الشهر الفضيل . فكثيرا ما لاحظ أهل هذا البيت وصحابة رسول الله ﷺ أن النبى الكريم كان يخص هذا الشهر بمزيد من التعبد والدعاء والذكر . وفى ذلك يقول إبن عباس رضى الله عنه : « كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فى رمضان يتهجد قائلا اللهم لك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد وأنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ... اللهم لك اسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت واليك أنبت ، وبك خاصمت ، واليك حاكمت ... فأغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت . وأنت المقدم والمؤخر ... لا اله إلاأنت ، ولا اله غيرك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وفى ليالى رمضان يستحب المزيد من الصلاة فى كل بيت . وأما عن بيت النبوة فقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن ذلك فقالت : « ما كان رسول الله ﷺ يزيد فى رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة . يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلى أربعا أخرى فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن » ولعل النبى ﷺ كان يصنع ذلك تيسيرا على أمته وهديا لها . فكثير ما كان عليه أفضل الصلاة والسلام ما يطلب التيسير كما سترى فى أمور كثيرة .

كذلك شهد هذا البيت فى رمضان الكثير من الأمور التى نهى عنها النبى ﷺ ، والأخرى التى أباحها . وكان يفعل ذلك مبتدئا بنفسه ليكون هديا وتشريعا لمن بعده .

كان رسول الله ﷺ . يبيح إفطار رمضان للمسافر بل ويوجبه عليه . ولكن بشرط أن يكون فى صوم هذا المسافر مشقة ظاهرة . ففى الصحيح عن جابر رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ فى سفر . فرأى رجلا قد إجتمع الناس اليه وقد ظلل عليه فقال عليه أفضل الصلاة والسلام : ماله ؟ قالوا : رجل صائم فقال ﷺ : ليس البر أن تصوموا فى السفر » وبذلك قرر النبى ﷺ صراحة أن الصيام إذا شق على صاحبه أثناء سفره إلى الحد الذى يؤذيه فى صحته يعتبر إثما مكروها لا برا مشروعا .

وفى ذلك يروى أنس بن مالك رضى الله عنه : « كنا مع النبى ﷺ فى السفر . وكان منا الصائم ومنا المفطر .. ونزلنا منزلا فى يوم حار أكثرنا ظلا صاحب الكساء . فسقط الصوام . وقام المفطرون فضربوا الأبنية ، وسقوا الركاب . فقال رسول الله ﷺ ذهب المفطرون اليوم بالأجر » .

* * *

كذلك رفع صلوات الله وسلامه عليه التكليف بالصيام عن ثلاثة هم المجنون والصبى والنائم حيث قال : « رفع القلم عن ثلاثة المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم » .

وكان عليه الصلاة والسلام يسقط القضاء عمن أكل وشرب ناسيا

حتى أنه ﷺ كان يعلق على ذلك قائلا : « إن الله سبحانه وتعالى هو الذى أطعمه وسقاه . فليس هذا الأكل والشرب يضاف اليه فيفطر به . فإنما يفطر المرء بما فعل » .

وأباح رسول الله ﷺ الفطور للشيخ المسن ، والمريض والمجاهد فى سبيل الله وأيضا الحامل والمرضع والنفساء والحائض فمنهم من وجب عليه القضاء ، ومنهم من يباح له الفطر مع وجوب الفدية التى يقررها التوجيه النبوى الشريف .

كذلك أباح الرسول ﷺ السواك والاستنشاق والكحل . وكثيرا ما كان يلاحظ على الرسول ﷺ أنه كان يخرج مكتحلا ، وكان يستاك ويصب الماء على رأسه دون أن يسبب ذلك إفطارا .

وكان ﷺ ينهى الصائم عن الرفث والصخب والسباب . وكان يقول من الأفضل أن يكون جواب السباب عبارة « اللهم إنى صائم » يقولها بلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه . فليس الصيام إمتناع عن الأكل والشراب فحسب وإنما هو إمتناع عن كل ما يؤذى الناس ماديا ومعنويا .

ويؤكد أهل بيت النبى ﷺ ، وصحابته رضوان الله عليهم على أمر يجمعون عليه من معاصرتهم للرسول الكريم واستماعهم المباشر لهديه فى رمضان . وهذا الأمر هو أن الصائم يفطر ويبطل صومه بواحدة من أربعة وهى المعدة والعقل والدم والشهوة . والغريب أن معظم المفطرات تدور حول هذه الجوانب الأربعة .

فالمعدة لها حالتان .

الحالة الأولى وصول شيء اليها وذلك يشمل أمرين : أولهما وصول شيء اليها من منفذ أصلى عمدا كالأكل والشرب وكل ما وصل إلى الجوف عن طريق الفم أو الأنف وثانيهما وصول شيء اليها من منفذ غير أصلى كالكحل فى العين ، والتقطير فى الأذن ودهان الجروح المتصلة بالجوف . فى الأمر الأول الذى يدخل الشيء من منفذ طبيعى يكون مفطرا ، أما فى الأمر الثانى لا يكون مفطرا عملا بما روته السيدة عائشة رضى الله عنها من أن رسول الله ﷺ اكتحل فى رمضان وهو صائم .

فى حالة خروج شى من المعدة كالقيء عمدا فيفطر به الصائم . بينما القيء الذى يغلب الصائم دون تعمد فلا يفطر به . وحكمة ذلك أن هدف الصوم تنظيم عمل الاجهزة الهضمية . وتعمد القيء يتنافى مع ذلك . فهو يسبب اضطرابا فى الجهاز الهضمى . ولذلك كان من المبطلات بخلاف القيء الذى يغلب الإنسان فهو مما يضايقه . وبالتخلص منه يستريح الجهاز الهضمى . ولذلك لم يكن مفطر . وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه فى هذا أن النبى ﷺ قال : « عن ذرعه القيء فليس عليه قضاء . ومن استقاء عمدا فليقضى » .

* * *

أما العقل فإذا ذهب سقط بالجنون عن الصائم التكليف بالصوم . ولكن ما العمل إذا ذهب العقل مثلا بالأغماء ككل الأمراض ؟

هنا يباح للصائم بالفطر . كما لا يبطل الصوم إذا استمر المسلم صائما . وإن كان ذهاب العقل بالنوم فإنه لا يتنافى مع الصوم . لأن

الصوم ليس عبادة تتطلب يقظة الفكر والقلب كالصلاة .

* * *

والحالة الثالثة من حالات إبطال الصوم الدم . فمن أسباب إبطال صوم الصائم دم الحيض والنفاس . وحكمة ذلك أن نزيف دم الحيض يجهد المرأة . وقد يضعف صحتها . لكونه دما فاسدا متجمعا يتخلص منه الجسد دفعة أو على دفعات ، وتشغل به المرأة لما يسببه من تلوث اليدين ، وانشغال النفس بحالته إلى أن تطهر منه المرأة أو ينقطع عنها . ولذلك قال رسول الله ﷺ : « هذا شئ كتبه الله على بنات حواء » يعنى لهن العذر ولا إثم عليهن . وقد راعى النبى ﷺ فى المرأة هذه الحالة فرفع عنها التكليف فى الصلاة والصيام . إلا أنه يجب على المرأة قضاء ما فاتها من صوم أثناء فترة الحيض .

ولكن الدم الذى ينزل من الانف أو الجروح أو دم الحجابة وهى أخذ الدم من الجبهة على سبيل العلاج أو الفصد وهو أخذ الدم من أى عضو فلا يفطر الصائم بفعل شئ من هذا .

* * *

وتبقى الحالة الرابعة من حالات إبطال الصوم وهى الخاصة بالشهوة التى تشمل أمرين .

أولهما مباشرة الرجل للمرأة تفسد الصيام ولو لم يحدث إنزال . وهو الجماع لقوله تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن . علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ، فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا

وأشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الاسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل : ﴾ ولذلك كان من هدى رسول الله ﷺ أنه كان يغتسل وهو جنب من أهله ويصوم .

إلا أن من جامع زوجته فى نهار رمضان فقد فسد صومه وعليه القضاء والكفارة . أما القضاء فهو أن يصوم يوما عوضا عن اليوم الذى أفسد صومه ، وأما الكفارة فهى أن يصوم ستين يوما متتابعة ليس فيها يوم عيد ولا يوم من أيام التشريق . فإن لم يستطع أطعم ستين مسكينا عن صيام كل يوم تكفيرا عن انتهاكه لحرمة نهار رمضان لما ثبت من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ أيام رمضان فقال : يارسول الله .. هلكت وأهلكت . فقال النبى الكريم : ماذا صنعت ؟ قال الرجل : واقعت إمرأتى فى نهار رمضان متعمدا . فقال رسول الله ﷺ : إعتق رقبة . فقال الرجل : لا أملك إلا رقبتى هذه . فقال رسول الله ﷺ : صم شهرين متتابعين . فقال الرجل : وهل جاءنى ما جاءنى إلا من الصوم فقال رسول الله ﷺ : إطعم ستين مسكينا . فقال الرجل : لا أجد . فأمر رسول الله ﷺ أن يؤتى بفرْق (بسكون الراء وهو مكيال) من تمر فيه خمسة عشر صاعا وقال ﷺ : فرقها على المساكين . فقال الرجل ما بين لابتى المدينة أحد أحوج منى ومن عيالى . فضحك النبى ﷺ حتى بدت ثناياه ثم قال عليه أفضل الصلاة والسلام : خذه فأطعمه أهلك يجزيك الله ولا يجزى أحد بعدك » .

هذه القصة التى يرويها أبو هريرة رضى الله عنه لا تخلو من الالتزام بإقامة حدود الله مع التيسير الذى لا يؤتى من بشر غير النبى الكريم .

وأما من استمنى بيده وهو ما يعرف فى عصرنا « بالعادة السرية » فى نهار رمضان متعمدا فعليه القضاء فقط . أى يصوم يوما بعد رمضان . ولا كفارة عليه . لأنه وإن وجد فيه معنى الجماع – وهو الانزال – فإنه لم توجد صورة الجماع ولم تكتمل عنده الحالة الموجبة للكفارة . وإن كان ذنب ذلك كله عند الله عظيما . كما يرى الامام عبد الحليم محمود .

وأما المباشرة التى لا تفسد الصوم وتشمل القبلة ، فقبلة الرجل لزوجته وهو صائم لا يبطل بها صومه . كما يسجل الامام ابن القيم الجوزية رضى الله عنه فى كتابه « زاد المعاد فى هدى خير العباد محمد خاتم النبيين والمرسلين » ما روته السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان النبى ﷺ يقبل ويباشر وهو صائم ، وكان أملكه لإربه (أى لشهوته) » .

والحق أن رسول الله ﷺ – كما يسجل إجماع العلماء – قد أباح القبلة ، وشبه قبلة الصائم لزوجته بالمضمضة سواء بسواء . ومن المباشرة فيما دون الفرج . فللصائم أن يباشر إمرأته دون الفرج . إن آمن إنزال المنى . كأن يتمتع بإحتضانها ومداعبتها . فإن تسبب من ذلك نزول المذى ، وهو ماء رقيق يخرج عقب فتور الشهوة بلا لذة ولا دفق فلا ضرر بذلك . وإن تسبب نزول المنى فسد الصوم .

وبناء على ما تقدم يجمع العلماء أن الصائم لا يفطر بأمر خارج عن ارادته كالإحتلام نهارا ، وكإنزال المنى أو المذى بسبب مجرد النظر أو الفكر ، وكذلك لا يفطر إذا أجنب بالليل ثم أصبح جنبا ، أو إذا انقطع دم الحيض أو النفاس فى اللحظة الأخيرة قبل غروب الشمس .

وكذلك من نوى الفطر وهو صائم ، وإن لم يتناول مفطرا . فإن النية ركن من اركان الصيام . فإذا نقضها قاصدا الفطر ومتعمدا له . بطل صيامه لا محالة .

ومع هديه عليه الصلاة والسلام نواصل التطلع إلى هذا البيت الكريم . وما يتم فيه خلال شهر رمضان المعظم سواء من آل البيت أو من صحابة رسول الله ﷺ . والجميع يلتمس الهدى من البشير النذير الذى بعث رحمة للعالمين . ومن مجموع ما نظفر به من هذا الهدى النبوى يتكون لدينا ذلك السلوك الشرعى المتبع بعد ذلك فى رمضان حتى قيام الساعة .

ففى هذا الشهر المعظم . تستحب قراءة القرآن . وكثيرا ما كان سيدنا رسول الله ﷺ يحدث صحابته عليهم رضوان الله عن فضل قراءة القرآن . بل وكان عليه الصلاة والسلام ينصح أصحابه وأتباعه لتأمل وتعلم آيات هذا الكتاب المبين وها هو أحدهم عثمان بن عفان رضى الله عنه يستمع إلى النبى حين يقول : « إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه » .

وكان رسول الله ﷺ يتلو القرآن – فى رمضان – عذبا ثم يحدث صحابته وأتباعه وآل بيته عن كرامات هذا الكتاب حيث يقول : « لا أحسد إلا فى اثنتين منهما رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وأثناء النهار » .

وهذا أبو ذر الغفارى رضى الله عنه يقول لرسول الله ﷺ أوصنى يارسول الله فيرد الرسول الكريم : « عليك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله . قلت : يارسول الله زدنى ؟ فقال رسول الله ﷺ : عليك بتلاوة القرآن فإنه نورٌ لك فى الأرض ، وذكر لك فى السماء » .

فالنبى ﷺ كان يرى فى القرآن خير وسيلة لإئتلاف القلوب . وها هو جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه » صدقت يارسول الله . فقراءة القرآن عبادة ، والتفكير فيه خير ، واتباعه واجب ، وكلما اقتربنا منه إقتربنا من الله عز وجل .

ورمضان شهر يستحب فيه الإحسان . وهذا رسول الله ﷺ كان أجود الناس فى شهر رمضان حتى إن ابن عباس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان . حين يلقاه جبريل عليه السلام وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان . فيدارسه القرآن فرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة » .

وفى ليالى شهر رمضان اتبع المسلمون فى أكلهم وشربهم نص الآية الكريمة : ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ ولما نزلت هذه الآية الكريمة . عهد واحد من المسلمين هو عدى بن حاتم . إلى عقال اسود وعقال أبيض وجعلهما تحت وسادته ، وظل ينظر اليهما فى الليل فلا يستبين له شئ . فذهب إلى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك . فقال الرسول ﷺ : « إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار » .

ومن هنا كان على الصائم أن يستعد قبل أن يتبين هذا الأبيض من الاسود . أو قبل الفجر . وقد كانت هناك وسيلة فى عصر النبوة تحدد ذلك . فقد لاحظ آل بيت رسول الله وصحابته رضوان الله عليهم أن

ما بين سحور رسول ﷺ وأذان الفجر ما تستغرقه قراءة خمسين آية مع استيفاء شروط قراءة القرآن .

وقد روى البخارى بسنده عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : « تسحرنا مع النبى ﷺ . ثم قام إلى الصلاة . قلت : كم كان بين الآذان والسحور ؟ قال رسول الله : قدر خمسين آية » .

إذن فالسحور واجب لأنه يميز صيامنا فى رمضان عن صيام أهل الكتاب وفيه يقول ﷺ : « تسحروا فإن فى السحور بركة . فلا تدعوه ولو أن يتجرع أحدكم جرعة ماء » .

والرسول حين أوصانا بالسحور فإنه عليه أفضل الصلاة والسلام ينهى ضمنيا عن مواصلة الصوم ليلا ونهارا تلك المواصلة أو الوصال الذى ينهى عنه صراحة عندما أراد أهل بيته وصحابته رضوان عليهم أن يقلدوه حين كان يواصل الليل بالنهار . وألحوا عليه قائلين رضوان الله عليهم : « إنك تواصل الليل بالنهار – فلماذا لا نفعل ؟ قال عليه الصلاة والسلام ردا على سؤالهم : لست مثلكم إنى أظل عند ربى يطعمنى ويسقينى » كما سنرى بعد قليل فى الحديث عن وصاله عليه أفضل الصلاة والسلام فى شهر رمضان المعظم .

ولذلك أوصانا الرسول ﷺ بالسحور وكان يحرص عليه . وكان فى سحوره متواضعا بسيطا . فهو فى الأصل كان يقصد بالسحور النشاط الإنسانى الذى قد يخمل ويخمد بغير غذاء أو شراب .

المسلم طالما وقد أمسك عن الطعام والشراب والجماع قبل الفجر فقد صام شرعا . حتى إن نام بعد ذلك ورأى فى المنام أنه جامع وأستيقظ فوجد نفسه قد أنزل فلا شئ عليه لأن الحرج مرفوع عن النائم حتى يستيقظ . ولأن الصوم إنما يفسد بتعمد فعل ما يفطر أو التسيب فيه بعدم الإحتراز ، ولأنه يجوز الغسل فى أثناء الصيام وبقاء الجنابة فى أثناء النهار لا يفسد الصوم .

وكما كان النبى ﷺ بسيطا متواضعا فى سحوره . فهو أيضا كان كذلك فى فطوره . لقد كان ﷺ يفطر قبل أن يصلى المغرب ، وكان فطوره على رطبات قليلة هذا إن وجد . وإن لم يجد فإنه يحمد الله على ذلك . وتقول أم المؤمنين زوجته السيدة عائشة رضى الله عنها : « دخل علىَّ رسول الله ﷺ ذات يوم فقال هل عندكم شئ ؟ قلنا : لا . قال عليه أفضل الصلاة والسلام فإنى إذن صائم » .

ويذكر عن النبى ﷺ أنه كان يقول عند أفطاره : « اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت فتقبل منا أنك أنت السميع العليم » .

ويقول ﷺ حين سئل عن موعد الأفطار : « إذا أقبل الليل من ها هنا ، وأدبر النهار من ها هنا فقد أفطر الصائم » : وفسر ذلك بأن الصائم يفطر حكما وإن لم ينوه .

وعن سهيل بن سعد رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور . لأن اليهود وأهل الكتاب يؤخرون الإفطار إلى إشتباك النجوم فى السماء » .

ولكن ما حكم من يصوم شهر رمضان ولا يصلى ؟ هذا السؤال ربما يتردد فى عصرنا . وإن كان غير وارد فى عصر النبوة حيث كان المسلمون الأوائل يحرصون على الصلاة حرصهم على الصيام . لأنهم تعلموا من هدى النبوة وأدركوا أن الصلاة عماد الدين مَنْ أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين .

عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : « إن النبى ﷺ كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه . فقلت له : لماذا تصنع هذا يارسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

قال النبى ﷺ : « أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا » .

وقالت أيضا السيدة عائشة رضى الله عنها : « لم يكن ﷺ على شىء من النوافل أشد تعاهدا منه على ركعتى الفجر » نعم كان النبى يحرص على ذلك فى شهر رمضان . كما يحرص عليه فى بقية الأوقات .

بعد ذلك قد يسأل سائل فى عصرنا الحديث : وما حكم الصوم ؟ ليرد عليه العلماء وفى مقدمتهم الإمام الشيخ عبد الحليم محمود قائلا : نقول إن صومه صحيح . بمعنى أن تأديته للفرض صحيحة . وأنه لا عقاب عليه فيما يتعلق بالصوم . إنما حسابه وعقابه على ترك الصلاة .

* * *

يبقى من الحديث عن ذلك البيت وما كان يحدث فيه فى رمضان ... نعنى بيت النبوة . الوصال أى مواصلة الصوم والاستمرار فيه ليلا ونهارا . والنبى ﷺ وقد كان يخص شهر رمضان بالعبادة . بما

لا يخص غيره من الشهور ، حتى أنه كان يواصل – أحيانا – الصوم حتى يوفر ساعات الليل والنهار لهذه العبادة . خصوصا وأننا نعرف أن أيات كثيرة من القرآن الكريم صاحبت حلول هذا الشهر المعظم . فكان يواصل حتى لا يشغله عن كل ذلك طعام أو شراب أو ما إلى ذلك مما يفعله صائم رمضان فى فترة أفطاره قبل الإمساك . وقد لاحظ ذلك أهل بيته وصحابته عليهم رضوان الله . فأرادوا أن يسلكوا هديه ، فنهاهم عن ذلك كما تقول زوجته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : « نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم » أو كما قال أبو هريرة رضى الله عنه : « إن النبى ﷺ قال إياكم والوصال . قالها ثلاث مرات . قالوا فإنك تواصل يارسول الله ؟ قال ﷺ : أنكم لستم فى ذلك مثلى . إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى فأكلفوا من الأعمال ما تطيقون » .

وقد اختلف المفسرون فى أمر هذا الطعام الذى يطعمه به رب العزة سبحانه وتعالى . المذكور فى نص الحديث . فالبعض كان يرى أنه طعام وشراب حسى للفم قالوا ذلك إنطلاقا من لفظى الطعام والشراب . وقال البعض الآخر إن المراد بهذا الطعام والشراب ما يغذى به الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ من المعارف ، وما يفيض به – سبحانه وتعالى – على قلبه من لذة مناجاته ، وسعادته بقربه ، وتنعمه بحبه والشوق اليه جل شأنه ... وغير ذلك مما هو غذاء للقلب ، ونعيم للروح ، وقرة للعين ، وبهجة للنفس .

والإمام ابن القيم الجوزيه رضى الله عنه يوضح لنا ذلك فى كتابه « زاد

المعاد » ويقربه إلى إذهاننا حيث يضرب لنا مثلا بمن له تجربة شوق ، فإنه يدرك استغناء الجسد بغذاء القلب والروح . عن كثير من الغذاء الحيوانى فيقول : « المسرور الفرحان الظافر بمطلوبه الذى قد قرت عينه بمحبوبه ، تنعم بقربه والرضا عنه ، والطاف محبوبه وهداياه وتحفه تصل اليه كل وقت ... فكيف بالحبيبْ الذى لا شيء أجلّ منه ولا أعظم ولا أجمل ولا أكمل ولا أعظم إحسانا إذا إمتلأ قلب المحب بحبه ، وملك حبه جميع أجزاء قلبه وجوارحه ، وتمكن حبه منه أعظم تمكن . وهذا حاله مع حبيبه . أفليس هذا المحب عند حبيبه يطعمه ويسقيه ليلا ونهارا . ولهذا قال إنى أظل عند ربى يطعمنى ويسقينى ولو كان ذلك طعاما وشرابا للفم ، لما كان صائما فضلا عن كونه مواصلا ، وأيضا فلو كان ذلك فى الليل لم يكن مواصلا ولقال لأصحابه إذا قالوا له إنك تواصل . لست أواصل ولم يقل لست كهيأتكم . بل أقرهم على نسبة الوصال اليه وقطع الألحاق بينه وبينهم فى ذلك بما بينه من الفارق » .

والوصال إذن كان خاص بالنبى ﷺ . حتى حين حاول بعض أهل بيته وصحابته رضوان الله عليهم . الوصال تأسيا بهدى رسول الله ﷺ والحوا فى ذلك . أراد ﷺ أن يرد عليهم عمليا . أن يدخل وإياهم فى تجربة عملية لهذا الوصال فواصل بهم يوما . ثم رأوا الهلال فقال صلوات الله وسلامه عليه : « لو تأخر عنى الهلال لزدتكم » أى لكان عليه أفضل الصلاة والسلام واصل بهم الصيام يوما ثالثا حتى يريهم مشقة الوصال .

أو كما رأى أبو هريرة رضى الله عنه أن ما فعله النبى ﷺ كان نوعا

من الزجر حيث قال : « وذلك كالتنكيل لهم لما أبوا ألا ينهوا عن الوصال » .

الوصال إذن منهى عنه نهى تحريم . إذا أضر بالإنسان ، ونهى كراهية إذا لم يضر . لأنه فى الحالة الثانية حالة عدم اضراره فإنه من غير شك يبعث فى الإنسان فتورا ، وإنصرافا عن العمل ، ويتسبب عنه كسلا فى طلب الرزق ولهذا كان نهى النبى ﷺ لأهل بيته وصحابته .

وحتى حين سمح سيدنا رسول الله ﷺ . بشىء من الوصال جعله موقوتا محددا حتى موعد السحور . فقال صلوات الله وسلامه عليه : « لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر » أى إلى ما قبل الفجر بوقت كاف لتناول الطعام والشراب .

يفهم من هذا أن الوصال خاص بالنبى ﷺ ، وأن بعض أصحابه وأهل بيته كانوا يريدون أن يواصلوا ولكنهم عدلوا عن ذلك إتباعا لأمره ﷺ . بل إن الطريقة المثلى فى الصوم هى فى تعجيل الفطور وتأخير السحور كما ورد عن رسولنا الكريم حيث قال : « لا تزال أمتى بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحر » وفى ذلك حكمة إسلامية هى طلب التيسير على الناس فى أمر من أمور دينهم .

وكان رسول الله ﷺ يواصل صيام ستة أيام من شوال بعد رمضان ولكن بشرط أن يكون الفطر يوم العيد فاصلا بين إتمام شهر رمضان وهذه الأيام الستة وفى ذلك يقول النبى ﷺ : « من صام رمضان ، ثم اتبعه

بستة من شوال كان كصيام الدهر كله » فصيام هذه الأيام الست من شوال سنة وليست فريضة . هو أمر مستحب وليس مفروضا ... أمر له ثوابه العظيم .

إلى آخر هذه الجوانب التى يمكن رصدها عن النبى ﷺ فى بيته أثناء شهر رمضان . والخاصة بهديه . وليس فى الحديث عن آل هذا البيت فلذلك مجاله العام وليس الخاص برمضان إلا إذا ارتبط بحدث معين ثم فى رمضان كما سنرى بعد ذلك □

فـــى
حربه القائد
والسياســـى

وإذا خص الله سبحانه وتعالى شهر رمضان بنزول القرآن الكريم ، على غيره من الشهور العربية الأخرى . فإنه سبحانه وتعالى قد خص هذا الشهر المعظم أيضا بالإنجازات الحربية العظيمة فى ميدان القتال . صحيح أنه إلى جانب هذه الانجازات الحربية ، كانت هناك إنجازات سياسية قامت دعائمها على الدعوة إلى الله بالحسنى ، فلم تشغل الأعمال القتالية فى عصر المبعث الذى إمتد ثلاثة وعشرين عاما أكثر من ثمانية أعوام هى بالتحديد من العام الثانى للهجرة ، إلى العام التاسع ، وأن تكون بعض

هذه الأعمال القتالية التى كتب للمؤمنين فيها النصر ، أغلبها فى رمضان ، أو بالتحديد فى السنوات التسع الأخيرة من حياة الرسول ﷺ .

ويفهم من ذلك أن صدر الإسلام قد اصطبغ بالجهاد . وهذا أمر طبيعى . إذ أن الطريق أمام الرسول ﷺ لم يكن معبدا مفروشا بالورود . بل هو ملىء بالأشواك ، محفوف بالمكاره ، ومن الواجب عليه وعلى الذين آمنوا به عليه أفضل الصلاة والسلام أن يوطنوا أنفسهم على الصبر والجهاد ، أن يكونوا بأعمالهم القدوة الحسنة لكل من يأتى بعدهم من المصلحين .

ولذلك يقرر العلماء قديما وحديثا بأن الإسلام دين جهاد وليس دين استكانة أو استسلام . وكيف يكون كذلك وهو فى الأصل دين القوة والعزة ، دين الإباء والكرامة دين الرفعة والشمم ، والمؤمن القوى فى هذا الدين خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وكيف لا يكون المؤمن كذلك وهو يعلم أن عقيدته الإسلامية التى نهض بإعتناقها ... تزوده بمبادىء الحق والفضيلة ، وتنزهه عن مزالق الفتنة والرذيلة .

طهرت عقيدته من الزيغ والخرافة ، وخلصت عبادته من الرياء والبدعة ، وتنزهت معاملته من الغش والظلم ... ثم ملك زمام نفسه بمكارم الاخلاق وجميل الصفات .. من علم وعمل ، وتضحية وفداء ، وتعاون وبر ... ومن تكون هذه سماته كيف لا يعيش قويا عزيزا .

ولوجود هذا المؤمن القوى الذى هو أحب إلى الله من المؤمن

الضعيف فى فجر الإسلام ... كان لابد أن يزدهر الجهاد وقتئذ خصوصا وأن هناك فى الطرف الآخر من يناصب الدعوة فى بدايتها العداء . وهناك من المشركين من يتربصون للإسلام ونبيه الكريم الدوائر ..

وللجهاد فى الإسلام خصائصه دون غيره من الديانات السماوية فقد بين الله سبحانه وتعالى أن التفرغ للقتال ، لا يصرف عن الإنسان الرزق أو يمنعه . فالرزق ضمنه الله سبحانه وتعالى . وأقسم على ذلك . حتى لا يغمر القلق أقطار النفس البشرية . كذلك بين الله الجهاد لا يقصر الأجل . فقد يكون مجاهدا فى الحرب أقرب الناس إلى الموت مع أنه أبعدهم عن هذا الموت بأمر الله . ذلك أن الآجال محددة بأمره سبحانه وتعالى . ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ كذلك يرفض الإسلام التخلف عن الجهاد أو الاستئذان فيه . فهذا الاستئذان يتعارض مع كون الفرد مؤمنا بنص الآية الكريمة : ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وأرتابت قلوبهم فهم فى زيغهم يترددون ﴾ .

وحتى إن انتهى الجهاد بالاستشهاد . فالمصير من الله هو الجنة حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل إحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما أتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ .

وليس هناك ترغيبا فى الجهاد أكثر مما تتضمنه هذه الآية الكريمة :
﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وَعْدًا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ، فأستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

فإذا كان هذا هو طابع الإسلام فى الجهاد . فلابد أن يكون نبى هذا الدين صلوات الله وسلامه عليه هو أعظم المجاهدين . أليس هو القائل : « والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » وهو القائل أيضا : « مَن مات ولم يغزو ، ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق » . إن النبى العابد هو النبى المجاهد . وأن نبى الرحمة هو نبى الجهاد . وما الجهاد فى الإسلام إلا فى سبيل الله ، وإذا خرج عن سبيل الله لم يكن جهادا ولا إسلاميا . لذلك لم يتراجع النبى ﷺ فى واحدة من الغزوات ، فخرج فى مقدمة المجاهدين فى سبيل الله من المؤمنين فى احدى وعشرين غزوة . كان فى كل غزوة . نعم القائد ، ونعم السياسى أيضا الذى يستشرف رؤى المستقبل . وهذه القصة التى رواها « البراء بن عازب » رضى الله عنه فقال : « أمرنا رسول الله ﷺ . بحفر خندق فعرضت لنا صخرة فى مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول . فشكونا إلى رسول الله ﷺ . فجاء ثم هبط إلى الصخرة وأخذ المعول وقال : بسم الله . وضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة ، فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام . والله أنى لأبصر قصورها

الحمر من مكانى هذا . ثم قال : بسم الله . وضرب ضربة أخرى فكسر ثلث الصخرة الثانى . فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس . والله إنى لأبصر المدائن . وأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا . ثم قال : بسم الله وضرب ضربة ثالثة فقلع بقية الصخرة . فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن . والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا » .

هذه القصة إن دلت على شيء فإنما تدل على أمور كثيرة فى مقدمتها أولا بُعْد نظر النبى ﷺ . فالذى تنبأ به من فتوحات فى الشام وفارس واليمن قد تحقق فى أقل من ربع قرن من الزمان على أيدى خلفائه رضى الله عنهم . ثانيا : هذا التفاؤل والثقة بالله وبالنفس وهو من الأمور التى ينبغى أن يتمتع بها السياسى أو المصلح الاجتماعى . فعليه أن يشيع الأمل والتفاؤل فى صفوف رجاله لاسيما إذا كانوا فى حرب مع قوى أكبر وأعظم . ثالثا قيام الرسول ﷺ بأى عمل يقوم به أى جندى من جنوده مع أنه هو القائد الأعظم . فضلا عن كونه النبى الأكرم ... يضاف إلى كل ذلك استفادة النبى ﷺ وصحبه رضى الله عنهم بفنون الحرب عند غيره ممن يجيدها . خاصة القوتين العظيمتين فى العالم القديم الروم وفارس واستيعابه عليه الصلاة والسلام للجوانب الإيجابية عندهما . فلا يوصد بابا أمام خبرة قتالية منظورة ، ولا يغلق فكرا أمام تطورا عسكريا جديدا مما أدى إلى انتصاره عليهما . وهو ما يفصله كتاب « الانتصارات العربية العظمى فى صدر الإسلام » للمشير محمد عبد الحليم أبو غزالة حيث يقدم بخبرته العلمية والقتالية فى الوقت نفسه دراسة نادرة تعتمد على الحقائق التاريخية والموضوعية المتعلقة بفن القتال فى صدر الاسلام .

* * *

ولا يفهم من ذلك أن الإسلام قام على الإعتداء كما يشيع اعداء الإسلام . فالاسلام كان يرفض كل صنوف الاعتداء بنص الآية الكريمة : ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ . فأعماله الحربية كانت بغرض الدفاع عن النفس أولا ونشر الدعوة ثانيا بجهود المهاجرين والانصار . فإذا كان لدى المهاجرين ما يبرر لهم القتال دفاعا عن عقيدتهم التى من أجلها تركوا ديارهم وهاجروا ، واسترداد ما حجزته قريش من أموالهم عند هجرتهم . فإن للانصار أيضا ما يبرر لهم القتال . دفاعا عن هذا الدين الذى دخلوه بإختيارهم . إلى جانب دفاعهم عن إخوتهم من المؤمنين المهاجرين الذين هاجروا إليهم واستجاروا بهم من إيذاء قريش . وإذا كان هذا العمل كبير عند المؤمنين مهاجرين أو أنصار . فإنه عند الله ورسوله أكبر من كل شيء ذلك لأن الدفاع عن الدين والعقيدة هو الغاية التى شرع الله من أجلها القتال ، والمثل على ذلك واضح هو ما نزل فى سرية « عبد الله بن جحش الاسدى » الذى بعثه سيدنا رسول الله ﷺ فى شهر رجب بعد الهجرة ، ومعه جماعة من المهاجرين . وسلمه كتابا ، وأمره ألّا ينظر فيه إلا بعد مسيرة يومين – فيمضى ولا يكره أحد من أصحابه ومضى اليومان وفتح عبد الله كتاب رسول الله فإذا فيه : « وإذا نظرت فى كتابى هذا فأمضى حتى تنزل نخلة (وهو مكان بين مكة والطائف) فترصد بها قريش ، وتعلّم من أخبارهم » وأخبر عبد الله مَنْ معه بأنه لا يكره أحدا على المضى معه . فمضوا جميعا إلا إثنين هما سعد بن أبى وقاص ، وعتبه بن غزوان . اللذين ذهبا يبحثان عن بعيرا لهما ضال .

فأسرتهما قريش . وسار عبد الله ومن معه حتى نزلوا المكان المحدد فى آخر رجب . وهنا مرت بهم بعير تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمى . فتذكر عبد الله ومَنْ معه ما صنعته قريش بهم . وتشاوروا فى الأمر وقال بعضهم لبعض : « والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فلمتنعن منكم به . ولئن قتلتموهم لتقلنهم فى الشهر الحرام » وترددوا فى الإقدام على هذا العمل الأخير . إلا أنهم تشجعوا على القتال . ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله وأسر المسلمون رجلين من رجاله . وعاد عبد الله بالعير والاسيرين إلى المدينة . فلما رآهم النبى ﷺ قال لهم زاجرا : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » وأوقف العير والاسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا . وعنف عبد الله وأصحابه . ورغم ذلك انتهزت قريش الفرصة ونادت فى كل مكان من الجزيرة أن محمدا وأصحابه استحلوا الشهر الحرام فسفكوا الدماء وأخذوا الأموال وأسروا الرجال ، ودخل اليهود بالدس يريدون إشعال نار الفتنة وهنا نزل قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن أستطاعوا ﴾ . وهنا ارتاحت ضمائر المؤمنين لما فعلوا بعد نزول هذه الآية الكريمة فى هذا الامر بالذات فأزدادت قبضتهم على الاسيرين . حتى إذا افتدتهما قريش قال النبى ﷺ : « لا نفدتكموهما حتى يقدم صاحبانا » وقدم سعد وعتبه وأفداهما النبى بالاسيرين .

وهنا يجيب القرآن الكريم على سؤال هل القتال فى الشهر الحرام من الكبائر ؟ ويقرهم على أنه بالفعل أمر كبير لكن هناك ما هو أكبر . إنه الجهاد فى سبيل الله فلا جناح على الذى يقاتل فى سبيل الله أو يقاتل لنصرة دين الله . ولقد كانت هذه الوقعة سببا فى معركة بدر □

واستجابت
السماء
يوم بدر

وكان قتل عمرو بن الحضرمى أول دم أريق فى الاسلام بغير قصد أو تخطيط . فكما رأينا أن سرية عبد الله بن جحش خرجت لتقييد أخبار المشركين وليس لقتالهم . وحين عاد عبد الله بن جحش عنفه الرسول ﷺ على ما صنع وتجمد الموقف حتى نزلت الآية الكريمة التى شرعت قتال الذين يفتنون المؤمنين ويصدوهم عن دينهم وعن الجهاد فى سبيل الله ونشر دينه . وعلى هذا كانت هذه الواقعة بمثابة الحد الفاصل بين الطرفين المسلمين من ناحية يفكرون فى رد أموالهم التى استولت عليها

قريش بعد هجرتهم وليس هناك من سبيل آخر غير القتال . خصوصا وأن قريشا أثارت عليهم القبائل بحجة أنهم قاتلوا فى الشهر الحرام . والمشركون من ناحية أخرى يريدون قتال المسلمين للأخذ بثأر عمرو بن الحضرمى كسبب ظاهرى وأما السبب الحقيقى فهو لحماية تجارتهم القادمة من الشام كهدف أوّلى من بعده يأتى الهدف الأكبر وهو القضاء على المسلمين ونبيهم ودينهم .

ولم يكن ذلك بخافى على الرسول ﷺ بالضبط كما لم يكن خافيا عليهم أن لا سبيل للإتفاق مع هؤلاء الذين أخرجوهم من ديارهم وأستولوا على أموالهم إلا بقتالهم . كذلك أدرك المشركون أن تجارتهم أصبحت مهددة تهديدا حقيقيا من المؤمنين مما يؤدى إلى انهيار مركزهم الاقتصادى وأن إزدياد نفوذ الإسلام يقابله ضعف لسيادتهم على القبائل العربية فلا سبيل إذن للإتفاق مع هؤلاء الذين يهددونهم إلا بقتالهم .

كانت هذه هى حوافز أو أهداف كل من الطرفين على القتال . وعلى هذا فكل من الطرفين يعد نفسه للمواجهة .

فى الجانب الاسلامى النبى يدعو المؤمنين للجهاد فى سبيل الله ويقول لهم : « هذه عير قريش (اشارة إلى العير القادمة من الشام محملة بتجارة المشركين) فأخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها » ويخف البعض ويثقل الآخر حيث لا يتصورون أن النبى ﷺ سيخوض معركة حقيقية مع قريش وإنما هى لا تزيد عن كونها واحدة من مناوشات الحرب . ويتحرك المسلمون إلى بدر فى الثامن من رمضان فى العام الثانى الهجرى . على

النحو التالى : فريق للاستطلاع للحصول على المعلومات عن قافلة قريش التجارية القادمة من الشام يتبعه الفريق الرئيسى لقوتهم المؤلف من كتيبتين . الأولى من المهاجرين ويحمل رايتها على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والثانية من الأنصار ويحمل رايتها سعد بن معاذ . والرايتان سودوان . ثم مؤخرة المسلمين بقيادة قيس بن أبى صعصعة ويتقدم هذه الفرق المحاربة مصعب ابن عمير حاملا راية بيضاء كنوع من الخدعة فى الحرب . وسلك الجميع طريق القوافل حتى بلغوا بدر .

وجاء رجلان من استطلاع المعلومات وابلغا النبى ﷺ أن قريشا تخرج من مكة لحماية قافلتها التجارية القادمة من الشام . وعرض الأمر على المسلمين طالبا المشورة وليعرف استعداد الرجال على خوض المعركة مهاجرين وأنصار فقام المقداد بن عمرو من المهاجرين وقال : « يارسول الله ! إمض لما أمرك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكن نقول إذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى (برك الغماد) لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه » .

وهنا أدرك النبى الكريم موقف المهاجرين وبقى الأنصار . فأعاد النبى ﷺ السؤال : « أشيروا علىَّ أيها الناس » فقام سعد بن معاذ وقال : لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أجل » قال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة . فأمض لما أردت فنحن

معك . فوالله الذى بعثك بالحق . لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ... إنَّا لصُبُرٌ فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » .

وهنا إطمأن النبى ﷺ لتضحيه المهاجرين والأنصار ، ولكن هناك أمور لابد من معرفتها فى مقدمتها تعداد المشركين القادمين لحربه ومتى يكون اللقاء ؟ فرأى أن يبعث دورتين للاستطلاع من خيرة رجاله ، حتى يعتمد على ما يأتون به من معلومات . وكانت الدورية الأولى مكونة من على ابن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم . وأمرها الرسول الكريم بالتوجه إلى ماء بدر ، حيث يتوافد عليه من يدلهم بشيء وعادت الدورية بغلامين من قريش استنطقهما النبى ﷺ فعلم منهما أن قريشا برجالها وراء الكثيب وسألهما عن تعداد رجالها فلم يعرفا . فسألهما : كم ينحرون يوميا ؟ » فأجاب الغلامان : يوما تسعا ويوما عشرة » فأستنبط النبى ﷺ بأنهم بين التسعمائة والألف .

وكانت الدورية الثانية مكونة من رجلين (لم تسجل الكتب القديمة أو الحديثة اسميهما رغم أهمية ذلك) وقد وصلا ماء بدر فسمعا جارية تطالب صاحبتها بدين لها ، والثانية تجيبها : « إنما تأتى العير غدا أو بعد غد فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك » وعادا ليخبرا النبى الكريم بما سمعا فأستنبط أن موعد اللقاء إما غدا أو بعد غد .

وعلى الفور تحرك المسلمون قريبا من ماء بدر . عسكروا هناك

فسأل الحباب بن المنذر رسول الله ﷺ : « أرأيت هذا المنزل . أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » قال رسول الله ﷺ : « بل هو الحرب والرأى والمكيدة » فقال الحباب : « يارسول الله ! فإن هذا ليس بمنزل فإنهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فنعسكر فيه ، ثم نعور (أى نفسد) ما وراءه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون » ووافق النبى على هذا الرأى – .

* * *

وهناك فى الطرف الثانى ... يعلم أبو سفيان بخروج النبى ﷺ لإعتراض قافلته المحملة بتجارة ... هى أموال قريش كلها . فيبعث رسولا إلى مكة يستنفرها بأن المسلمين يستولون على أموالهم . وهنا خرجت قريش لاسترداد أموالها . بينما يغير أبو سفيان طريق عودته مع القافلة . حتى يأمن على نفسه وقافلته وفى الوقت نفسه يشغل المسلمين بملاقاة قريش التى تحركت لنجدته . وعرفت موضع المسلمين وتعدادهم فسارت فى عدد من المقاتلين يزيد على ثلاثة أضعاف عدد المسلمين لاسترداد أموالها ، وأخذ ثأر عمرو بن الحضرمى .

وهكذا التقى الجمعان فى السابع عشر من رمضان . النبى ﷺ أشد ما يكون قلقا من مصير ذلك اليوم ، وأكثر ما يكون اشفاقا لما يئول اليه أمر الإسلام إذا لم يتم النصر إلى أن بدأ الاشتباك . وهنا إتجه إلى الله

عز وجل ينشده ما وعده به ويهتف أن يتم له النصر وجعل يقول : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى . اللهم أن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » .

واستمر يدعو ربه مستقبلا القبلة حتى سقط رداءه ، وقام أبو بكر برده وهو يقول : « يابنى الله ! بعد مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك وعدك » .

واستجابت السماء لدعائه وما هى إلا لحظات حتى سرت من نفسه قوة إلى نفوس هؤلاء المؤمنين فى قلتهم مما ضاعف من عزيمتهم إذ ذاك أكثر وأكثر حيث كان النبى ﷺ يتنقل بين صفوف رجاله يحثهم على الجهاد .

وأخذت صفوف المؤمنين تقترب رويدا من فلول العدو التى فقدت توازنها بفقدان قياداتها . الأمر الذى أدى إلى تفتيت قوات المشركين . وحينئذ أمر النبى ﷺ رجاله بأن يشدوا عليهم . أى القيام أولا والمطاردة ثانيا . حتى يضعف قوى المشركين . وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فأنهزموا وأنتصر المؤمنون .

هذه إشارة إلى معركة بدر الكبرى . بالقياس لما ترويه عنها الكتب المهتمة بالسيرة النبوية . على إعتبار أن هذه المعركة الحاسمة وجهت الإنظار إلى قوة للمسلمين ينبغى أن يحسب الاعداد حسابها .

والجدير بالذكر أن الكثير من الكتابات إهتمت بتقصى أسباب هذا النصر . ومن بين هذه الكتابات الحديثة ما كتبه اللواء الركن محمود شيت خطاب الذى قام بدراسة ضافية لهذه المعركة من الوجهة الحربية فرأى أن لهذا النصر أسباب فى مقدمتها بناء المسلم على ثلاث دعائم هى العقيدة الإسلامية والقدوة الحسنة وإختيار الرجل المناسب للمكان المناسب . يسبق هذا السبب أمر على جانب كبير من الاهمية وهو القيادة الموحدة فى شخص الرسول ﷺ وتطبيقه اسلوبا تعبويا جديدا لم تكن العرب تعرفه . ثالث هذه العوامل التى سببت النصر هو رسوخ العقيدة الإسلامية فى نفوس المؤمنين فى قتالهم هذا إلى جانب إهتمام النبى الكريم بمعنويات رجاله وغيرها من الأسباب □

شهداء المسلمين
وقتلى المشركين

وفى نهاية المجلد الأول وبداية المجلد الثانى من كتاب السيرة النبوية لابن هشام « ثبت » بأسماء من حضروا من المسلمين يوم بدر ومن أستشهد منهم ، و « ثبت » مماثل لقتلى وأسرى المشركين . وكان يكفى ابن هشام الذى يسجل رواية ابن إسحاق وغيره من الرواة فخرا علميا أنه استطاع أن يرصد أسماء أفراد الفريقين المتحاربين وعائلاتهم وقبائلهم بل ودور بعضهم فى هذه المعركة . التى لها وضعها الخاص فى التاريخ الإسلامى . حيث غيرت النظرة إلى المسلمين كقوم مستضعفين أجبروا على ترك ديارهم والحماية بغيرهم لضعفهم إلى قوة تستطيع بأمر الله أن تردع أكبر قوى

الصراع فى منطقة الجزيرة العربية فى العالم القديم ، وأن تكون هذه المعركة بداية لإنتشار الإسلام والدعوة اليه علنا بعد أن كانت خلسة . يطارد من يفعل ذلك شر مطاردة ، وأن تصبح قريش متوجسة خيفة على تجارتها التى تمر من مكة إلى الشام وبالعكس على المسلمين المتمركزين فى يثرب أى فى طريقهم . وهذا يعنى إنهيار لإقتصاد قريش القائم على هذه التجارة . كان يكفى ابن هشام فخرا علميا تحديده لهؤلاء الذين صنعوا هذا النصر أحياء أو شهداء . ثم المواجهين لهم من مشركى قريش . إلا أن هناك فخر علمى ربما يتأمله من يتوقف لحظة أمام هذا الثبت . واعنى تمييزه دون أن يكتب ذلك بين القتلى من الطرفين . فهو يعتبرهم شهداء عند المسلمين لأنهم قتلوا فى سبيل الله عملا بقوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ، تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ... ﴾ وقوله تعالى أيضا : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله.ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

وعملا بقول رسوله عليه الصلاة والسلام الذى رواه الترمذى ومنها هذا الحديث الذى يسجله ابن كثير بأن الرسول ﷺ لما رأى جابر بن عبد الله مغتما ومهتما لاستشهاد أبيه فى غزوة أحد قال له النبى مطمئنا ومبشرا : « ألا أخبرك ما قال الله لأبيك » فقال جابر : قلت بلى ، قال النبى ﷺ : « ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب ، وأنه كلم أباك

كفاحا (أى مواجهة) » فقال له رب العزة سبحانه وتعالى : « سلنى أعطك » قال الشهيد : « أسألك أن أرَّد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية » فقال سبحانه وتعالى : « إنه قد سبق من القول بأنهم اليها لا يرجعون » قال الشهيد : أى ربى فأبلغ من ورائى (أى ابلغهم) » فنزل قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون .... ﴾ فالشهيد سعيد باستشهاده ويتمنى لو أعيد إلى الدنيا مرة أخرى ليكون شهيدا مرة أخرى . أو قوله ﷺ فى شأن الشهيد ما يسجله البخارى عن رواية أنس ابنماللك رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله على الأرض من شئ إلا الشهيد... يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة » .

فلا عجب اذن أن يميز ابن هشام فى السيرة بين قتلى الطرفين . حيث نراه يضع اسماء القتلى من المشركين تحت عنوان « من قتل ببدر من المشركين » لأنهم قتلوا فى سبيل الشرك وليس فى سبيل الله . وليس الذى يقتل وهو يناصر الله ورسوله كالذى يقتل وهو يناصر رؤوس الكفر . وليس الذى يقتل لنشر دين الله كالذى يقتل وهو يمنع من نشر هذا الدين . وتلك ملاحظة مشكورة من ابن هشام حتى وإن كان كتب الاسماء هكذا مجردة تاركا للقارئ أن يدرك ما يريد أن يقول دون أن يقول . حتى لا يخرج عن وظيفته كمؤرخ ومسجل لروايات لا يتدخل فيها .

ونظرة أخرى إلى هذا الثبت العلمى . نجد أن البدريون الذين حضروا من المسلمين بلغ تعدادهم ثلاثة عشر وثلاثمائة (٣١٣) . وأن

الذين اشتركوا فى الحرب خمسة وثلاثمائة (٣٠٥) وتخلف ثمانية سنعرف أسباب تخلفهم بعد قليل . وهؤلاء الذين اشتركوا بالفعل فى الحرب كانوا على النحو التالى سبعة وثمانون مجاهدا من المهاجرين فى مقدمتهم النبى ﷺ وباقى عدد المشتركين فى الحرب كانوا من الأنصار أوس وخزرج وهم جميعا مهاجرين وأنصار من القادرين على حمل السلاح تحت قيادة النبى ﷺ .

وأما المتخلفين عن إدراك هذه المعركة فكانوا ثمانية من المهاجرين ثلاثة فى مقدمتهم عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى اضطر بأمر من النبى ﷺ أن يبقى مع زوجته السيدة رقية بنت الرسول فى ساعات احتضارها الأخيرة . وإثنان هما طلحة بن عبيدة وسعيد بن زيد اللذين بعثهما النبى ﷺ لاستطلاع أخبار العدو . وأما المتخلفين الخمسة فإثنان منهما اصيبا بكسر فى الطريق أقعدهما عن المضى وهما « الحارث بن الصمة » و « خوات ابن جبير » والثلاثة الباقين من الانصار تخلفوا لمسئوليات ألقيت على عاتقهم إبان غياب النبى ﷺ عن المدينة . كأن يخلف « أبو لبابه بن عبد المنذر » على المدينة و « عاصم بن عدى » خلفه على أهل العالية ، و « الحارث بن حاطب العمرى » قام بمهمة كلفه بها النبى ﷺ .

ونظرة أخرى إلى سجل شهداء المسلمين ، وقائمة قتلى المشركين نجد أن الشهداء أربعة عشر . ستة من المهاجرين هم « عبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب بن عبد مناف » ، و « عمير بن أبى وقاص » الذى استشهد وهو لم يزل فى السادسة عشر من عمره ، و « ذو الشمالين بن

عمر بن نضلة الخزاعى » و « عاقل بن البكير الليثى » و « مهجع » مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وصفوان بن بيضاء » واستشهد من الانصار ثمانية فى مقدمتهم شقيقان من بنى النجار هما « عوف بن عفراء » و « معوذ بن عفراء » .

ومن قتلى المشركين وعددهم سبعون قتيلا فى مقدمتهم « أبو جهل » واسمه « عمرو بن هشام بن المغيرة بن مخزوم » أحد رؤوس الكفر فى قريش . والذى ضربه معاذ بن الجموح فقطع رجله . ثم ضربه معوذ بن عفراء فجرحه جرحا تعذر عليه القيام من بعده . ليجهز عليه عبد الله بن مسعود . فكأن أبو جهل اشترك فى قتله ثلاثة من المؤمنين . كذلك قتل أخو أبو جهل « العاص بن المغيرة بن مخزوم » بيد عمر بن الخطاب بالاشتراك مع يزيد بن عبد الله . ومن بنى أمية قتل خمسة مما أوغر قلوبهم على النبى وعلى المؤمنين خاصة الامام على بن أبى طالب . وهؤلاء الخمسة هم : « حنظله بن أبى سفيان بن حرب بن أمية » شقيق معاوية ابن أبى سفيان حيث اشترك فى قتله ثلاثة من المؤمنين هم زيد بن حارثة ، وعلى بن أبى طالب والحمزه بن عبد المطلب رضى الله عنهم . و « عبيدة بن سعيد بن العاص بن أمية » وقتله الزبير بن العوام ، و « العاص بن أمية » وقتله على بن أبى طالب رضى الله عنه ، و « عقبه ابن عمرو بن أمية » وقتله عاصم بن ثابت رضى الله عنه ، و « أمية بن خلف » وقتله بلال مؤذن الرسول حين رآه . وكان أمية هذا قد عذب بلالا إذْ كان يخرجه إلى بضاء مكة (أى أكثر مواضع مكة حرارة) فيضجعه على ظهره ويأمر

بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ليرده عن الإسلام فيقول بلال كلمته المشهورة « أحد ... أحد » فعندما رآه بلال صاح : « أمية رأس الكفر لا نجوت إن نجا » وحاول بعض المسلمين رده عن قراره والاكتفاء باسره . إلا أن بلالا صرخ بأعلى صوته : « يا أنصار الله ! رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا » ولم ينصرف عنه حتى أجهز عليه ... وغير هؤلاء القتلى ما يتم السبعين قتيلا . بل إن إبن هشام يضيف أبو لهب إلى هؤلاء السبعين مقررا أنه وإن كان لم يشترك فى المعركة إلا أنه مات عندما سمع بهزيمة قريش أمام النبى ﷺ والمؤمنين .

كذلك ينشر ابن هشام قائمة بأسماء أسرى المشركين فى بدر تتصدرها أسماء من بنى هاشم بن عبد مناف منهم « عقيل بن أبى طالب ابن عبد المطلب » شقيق على بن أبى طالب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب » ابن عم النبى ﷺ وغيرهم .

والملاحظة الأخيرة التى يمكن أن يلحظها قارىء ابن هشام فى سيرته أن وسط الوطيس الذى يحفه ملك الموت ليقطع الرقاب كان محمد ﷺ كأى فرد من الذين يجاهدون فى سبيل الله ، كذلك كان الحمزة أسد الله ورسوله ، والامام على كرم الله وجهه يخوضان وطيس المعركة وقد نسى كل منهما نفسه فأمتلأ الجو بالغبار ، وفصلت سيوف المؤمنين أجساد المشركين حتى كانت الهامات تطير من أجسادها . وقد كشفت أمامهم حجب الزمان . يزيدهم الله إيمانا وتثبيتا . حتى لكأن الواحد منهم إذ يرفع سيفه ويهوى به على عنق عدوه من المشركين تحركه قوة الله التى وعد رسوله بها والمؤمنين . ما أحوجنا إلى تدبر مثل هذه المعركة من جديد □

المشركون
يعلمون
المؤمنين
الكتـــابة

وكما رأينا من إهتمام ابن هشام بالسيرة النبوية ، فى تسجيله لأسماء وقبائل أسرى معركة بدر من المشركين . فإن بعض الكتب قديمها مثل « عيون الأثر » لابن سيد الناس ، و « إمتاع الاسماع » للمقريزى وحديثها مثل كتاب « تحقيق النصوص ونشرها » للأستاذ عبد السلام هارون ... وغيرها من الكتب التى إهتمت بموضوع تعليم الكتابة ، وكيف كانت على أيدى المشركين من أسرى بدر ... حيث رأى النبى ﷺ أن إجادة الاسير

للكتابة وتعليمها لعدد من المسلمين يعد فدية له من الاسر . وتلك فضيلة وفضل لا ينكرهما إلا جاحد يتجاهل ما للكتابة من أثر كبير ليس فى نقل كتاب الله وحديث نبيه الكريم فحسب ، وأنما إيضا لها أثر كبير فى نقل وحفظ التراث العربى والإسلامى بعد ذلك .

* * *

لكن الحديث عن الكتابة كفدية من الاسر قد يسبقه حديثا عن أسرى أول حرب فى الإسلام . وهى بدر الكبرى . هؤلاء الاسرى الذين كانوا موضوعا لتهجم بعض المستشرقين . عندما توقفوا عند جانب معين . وهو الخاص بقتل أسيرين فى الطريق من بدر إلى المدينة . هما النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط .

ورغم أن هذا العمل حدث بغير أمر من النبى ﷺ كما تقرر كتب السيرة قديمها وحديثها ، وأن النبى ﷺ وأصحابه لم يصنعوا للاسرى نظاما ... على مقتضاه يكون قتلهم أو فداؤهم أو استرقاقهم ، ورغم أن هذين الأسيرين – بالذات – كانا على المسلمين أيام مقامهم بمكة شرا مستطيرا ، فكان يوصلان لهم من الأذى كل ما يستطيعون وكل ما لا يستطيع أن يتصوره مستشرق يتحدث بعد أربعة عشر قرنا من وقوع بدر ... إلا أن هؤلاء المستشرقين تركوا كل الصور الإنسانية المضيئة لمعاملة المسلمين للأسرى فى هذه الموقعة بالذات . وتوقفوا عند هذه الجزئية متساءلين : أليس فى قتل هذين الأسيرين ما يدل على ظمأ هذا الدين

الجديد – الإسلام بالطبع – إلى الدم . ظمأ لولاه ما قتل الرجلان ؟ وا...
كان من الأكرم للمسلمين بعد أن انتصروا فى معركة بدر أن يردوا الاسرى
وأن يكتفوا بالفىء الذى اغتنموه ؟

وغيرها من تساؤلات تريد أن تثير فى النفوس إشفاقا لم يكن يومئذ
له موضع ، كما أنه ليس له مبرر الآن فى ظل ما يحدث من مجازر وسفك
الدماء فى بلاد هؤلاء المستشرقين ... أقول ليس له موضع فى الماضى ،
ولا مبرر فى الحاضر ... اللهم إلا إذا كان وسيلة للنيل من الإسلام ونبيه
ﷺ بالحديث عن جزئية وترك بقية الجزئيات . ولهذا وجبت الإشارة إلى
ما تم من مناقشات بين النبى ﷺ وأصحابه فى شأن أسرى بدر .
وما حدث من مواقف إنسانية للنبى الكريم .

لقد حدثتنا كتب السيرة فى مقدمتها ما سجله ابن هشام وغيره
من القدماء وما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل فى « حياة محمد » وغيره
من المحدثين عرب أو أجانب . عن معاملة النبى ﷺ لأسرْى بدر ، حيث
فرقهم بين أصحابه قائلا : « استوصوا بهم خيرا » ليبدأ عليه صلوات الله
وسلامه التفكير فيما يصنع معهم ؟ أفيقتلهم أم يطلق سراحهم بعد أن
يأخذ منهم الفداء المشروع وقتئذ ؟ إن هو قتلهم لتسبب فى اراقة الدماء
لدينه السمح الذى من أجله بعث رحمة للعالمين ، ولأثار فى نفوس ذويهم
من قريش عداء ربما هدأ لو أنهم إفتدوهم ! ثم إن من هؤلاء الاسرى الاشداء
فى الحرب الأقوياء فى النضال ... ممن امتلأت بالحقد والضغينة نفوسهم
عد هزيمتهم المنكرة فى بدر وما لحقهم من عار الاسر . فإن هو أطلق
إحهم وقبل منهم الفداء كانوا عليه حربا ضروس !

وكعادته فى المشورة .. عرض النبى ﷺ الأمر على المسلمين . خصوصا وأن المسلمين قد خالطوا هؤلاء الاسرى فآنسوا منهم طمعا فى مزيد من الحياة فى مقابله دفع الفدية . ولهذا فكر هؤلاء الاسرى وقالوا : لو بعثنا إلى أبى بكر (رضى الله عنه) فإنه أوصل قريش لأرحامنا ، وأكثرهم رحمة وعطفا بها . ولا نعلم أحدا أن يثر عند محمد (ﷺ) أكثر منه . وبعثوا إلى أبى بكر فقالوا له : « يا أبا بكر . إن فينا الآباء والاخوان والعمومة وبنى العم وأبعدنا قريب . كلمٌ صاحبك (يقصدون النبى الكريم) يمّن علينا أو يفادنا » فوعدهم أبو بكر رضى الله عنه خيرا .

وفى نفس الوقت خافوا أن يفسد عليهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بشدته أمرهم فأرسلوا اليه . ليأمنوا جانبه ، أو على الأقل يحيدوه . فجاءهم . فقالوا له مثلما قالوا لأبى بكر . فنظر اليهم وقال لهم « لا آلوكم شرا » ثم انصرف إلى النبى ﷺ فوجد أبا بكر رضى الله عنه والناس حوله . وأبو بكر رضى الله عنه يقول له : « يارسول الله ! يأبى أنت وأمى . وقومك فيهم الأباء والأبناء ، والعمومة وأبناء العمومة والأخوان ، وأبعدهم منك قريب فأمنن عليهم ، مَنَّ الله عليك أو فادهم قوة للمسلمين . فلعل الله يقبل بقلوبهم اليك » ثم قام فتنحى ناصية . وسكت رسول الله ﷺ ولم يجبه .

وجاء عمر رضى الله عنه . وجلس مجلس أبى بكر رضى الله عنه وقال : « يا رسول الله : هم أعداء الله كذبوك وقاتلوك وأخرجوك . إضرب رقابهم . فهم رؤوس الكفر وأئمة الضلال . يوطىء الله بهم الإسلام ويذل بهم الشرك » ثم قال عمر رضى الله عنه : « يارسول الله ! أطعنى فيما اشير

به عليك . فإنى لا آلوك نصحا . قدِّم عمك العباس فأضرب عنقه بيدك ، وقدم عقيلا ابن أبى طالب الى أخيه (على بن أبى طالب) يضرب عنقه ، وقدِّم كل اسير منهم إلى أقرب الناس إليه يقتله » فسكت رسول الله ﷺ ولم يجبه فأنصرف عمر .

فجاء أبو بكر رضى الله عنه ليضيف إلى ما قاله : « هم عشيرتك ، وقومك لا تكن أول من يستأصلهم . وأن يهديهم الله خيرا من أن يهلكهم » ولم يرد رسول الله ﷺ . فأنصرف أبو بكر . ليقبل عمر رضى الله عنه ويأخذ مجلسه للمرة الثانية ويضيف : « يارسول الله ما تنتظر بهم . أضرب اعناقهم . يارسول الله أشف صدور المؤمنين فهم لو قدروا منا على مثل هذا ما أقالونا أبدا » .

* * *

ولم يرد رسول الله ﷺ وقام من مجلسه ودخل قبته دون أن يرد على الصحابيين الجليلين . بينما الناس بين مؤيد ومعارض للرأيين . فالبعض يقول : « القول ما قال أبو بكر » . والبعض الآخر يقول : « القول ما قال عمر » إلى أن خرج النبى ﷺ وقال للناس أجمعين : « ما تقولون فى صاحبيكم هذين ؟ دعوهما فإن لهما مثلا . مثل أبى بكر فى الملائكة كمثل ميكائيل ينزل برضا الله وعفوه على عباده ، ومثله فى الأنبياء كمثل إبراهيم حين قال : ﴿ فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ وكعيسى إذ يقول : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الرحيم ﴾ .

ومثل عمر فى الملائكة كمثل جبريل . ينزل بالسخط من الله

والنقمة على أعداء الله ، ومثله فى الأنبياء كمثل نوح إذ يقول : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ فدعا عليهم دعوة أغرق الله بها الأرض جميعا . أو مثل موسى إذ يقول : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ﴾ .

ثم قال رسول الله ﷺ : « وإن بكم عَيْلَةً فلا يفوتنكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق » وأنطلق رسول الله ﷺ إلى حيث الاسرى فالقى نظرة عليهم ثم قال : « لو كان مُطْعم بن عدى حيا لوهبت له هؤلاء ... » متذكرا هذا الرجل الذى أجاره وبسط حمايته عليه ، ومنع عنه أذى قريش وإن لم يدخل فى دينه . إنه عليه الصلاة والسلام لا ينسى هذه اليد ، وأنه فى هذه اللحظة التى يملك فيها رقاب الذين أجبروه على الهجرة ورفضوا حتى أن يظل بجوارهم وخيروه بالقتل أو الهجرة ولم يجيروه حين طلب ..... إنه هنا يتذكر فضل « مطعم بن عدى » ويقول لو كان حيا لجازاه بأن يهب له أسرى بدر . خلق عظيم من نبى كريم لا ينسى فى لحظات النصر أصحاب الفضل .

وسار رسول الله ﷺ إلى أسيره . هو عمه العباس وقال له : « افدى نفسك يا عباس ، وإبنى أخويك عقيل بن أبى طالب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عقبة بن عمرو فإنه ذو مال » فقال العباس : « يارسول الله إنى كنت مسلما ولكن القوم استكرهونى » .

إن العباس هنا يقر بإسلامه . ولكن ذلك سيفسد أهمية دوره فى بقائه بمكة يمد المسلمين بأخبار المشركين الذين يعيش بينهم فقال له النبى

ﷺ : « الله أعلم بإسلامك إن يكن ما قلت حقا الله يجزيك به ، وأما ظاهر أمرك ، فقد كان علينا ، فأفتد نفسك » وسار فى طريقه .

وتوقف رسول الله ﷺ عند « أبى عزه عمرو بن عبد الله الجمحى » وكان شاعرا فقال له أبو عزه : « إن لى خمس بنات ليس لهن شيء . فتصدق بى عليهن يامحمد اعطيك موثقا ألا أقاتلك ولا أكثر عليك أبدا » فأطلق سراحه ليعود إلى بناته غير مصدقا . وأمثلة انسانية أخرى لمعاملة النبى الكريم للأسرى .

* * *

ظل المسلمون فى تشاورهم زمنا من بعده انتهوا إلى قبول الفداء . وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض . تريدون عَرَضَ الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴾ .

واتخذت فدية الأسير صورا كان من بينها قيام الأسير بتعليم الكتابة لعشرة من المؤمنين . وكانت الكتابة شيئا جديدا فالعرب كانوا قوما أميين لم تنتشر الكتابة بينهم إلا مع الإسلام وبتوجيه من النبى ﷺ بعد معركة بدر . فكان زيد بن ثابت كاتب رسول الله أحد هؤلاء الذين علمهم أسرى بدر ، وكان « أُبّى بن كعب » أول أنصارى كتب للرسول « وعبد الله بن أبى سرح » أول من كتب له من قريش . وكان عدد من كتب لرسول الله ﷺ زهاء أربعين كاتبا . وكان هؤلاء الكتاب يكتبون القرآن . واتموا كتابته حتى بعد أن لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى .

وكان من بينهم من كتب الحديث النبوى الشريف . بعد أن استقر الأمر على تدوينه . فى عقب هذه الفترة التى أرادها النبى ﷺ ... حتى لا يختلط الوحى بحديث الرسول ﷺ فى أثناء نزول هذا الكتاب الكريم .

والحق أن الاستفادة المبكرة من المشركين فى تعليم المسلمين الكتابة أمر حضارى يدركه أولو الألباب . ويعطونه حق قدره خصوصا إذا تذكروا أن استخلاص الخير مجسدا فى الكتابة من أشرار قريش عمل لا يستطيع التفكير فيه إلا نبى كريم مثل محمد ﷺ . وأن تعليم الكتابة كان كبير الاثر بعد ذلك فى تدوين وحفظ الكتاب والسنة وأشعار العرب ومآثرهم فى الجاهلية والإسلام .

إن إعتبار تعليم الكتابة بمثابة إفتداء للاسير من المشركين أفضل رد على الذين يخوضون فى موضوع أسرى بدر □

* * *

وفـــاة
ابنته
ذات
الهجرتين

وكان ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضى الله عنه أحد ثلاثة من المهاجرين الذين تخلفوا عن الاشتراك فى الجهاد فى سبيل الله يوم بدر – كما رأينا – حيث بقى ساهرا على زوجته المحتضرة . ذات الهجرتين . هجرة أولى بدينها الأسلامى من مكة إلى الحبشة ، وهجرة ثانية بدينها أيضا من مكة إلى المدينة ، بقى الزوج الوفى إلى جوار بنت رسول الله ﷺ وقد اشتد بها المرض ، وطاف على المكان شبح الموت ... بقى هكذا بأمر من رسول الله ﷺ .

والحق أن كتب السيرة النبوية قد أفاضت فى الحديث عن وفاة رقية رضى الله عنها . لما يكتنف هذا الحادث من المعانى الدينية والإنسانية الممتزجة معا . فها هو رسول الله ﷺ يتوجه إلى بدر مع المؤمنين طلبا للجهاد فى سبيل الله ، وبنته تحتضر ، وأنها لن تنجو مما هى فيه إلا إذا أدركتها مشيئة الله تعالى الذى يحيى العظام وهى رميم . ومع هذا لم يتخلف أو حتى يتأخر لحظة عن نداء الجهاد فى سبيل الله ، وأنه ﷺ يغلب حبه لنصرة دين الله على حبه لابنته التى تحتضر . ونرى الزوج عثمان بن عفان . هذا الصحابى الجليل لم يتوان لحظة فى العمل من أجل الإسلام فضحى بماله وعشيرته وحريته وموطنه من أجل الإسلام . نراه يخشى أن يقع المحظور ويطلب منه رسول الله ﷺ أن يبقى إلى جوار زوجته فى لحظاتها الأخيرة . فيحجب عنه شرف الجهاد فى سبيل الله . هو حقا يحب زوجته حبا ملك أقطار نفسه . وكيف لا يحبها وقد اختارها وهى كريمة أشرف خلق الله ... لكن مع هذا فحبه لله تعالى أكبر وأكثر وأعظم . ولذلك فهو يبقى إلى جوارها طاعة لأوامر رسول الله ﷺ . ونرى المحتضرة الجليلة نفسها . ترنو ببصرها إلى الزوج المجاهد العظيم . وقد تقاعس عن الجهاد فى سبيل الله ليبقى ها هنا بجوارها . فيسأله صمتها البليغ وكأنها تقول له : لما تبقى فى المدينة والقوم عنها يخرجون طلبا للجهاد ؟ هى تعلم حتى فى ساعات إحتضارها أن الأب الحبيب عليه أفضل الصلاة والسلام يتركها مضطراً ذلك الإضطرار الجميل . لأن معناه الجهاد فى سبيل الله فلماذا لم يصنع الزوج الكريم مثل ما صنع الوالد الحبيب ؟؟ ، ونرى الشقيقتين أم كلثوم

وفاطمة الزهراء وقد وقفتا إلى جوار شقيقتهما المحتضرة عليهن رضوان الله ... لا حول لهن ، ولا قوة ، ولا معين . إلا رحمة الله التى تسع كل شئ . وقفتا تنظران إلى المحتضرة فى حب وحنان عاجزان ويزيد من عجزهما المعنى الأكبر هو أن الجميع رجالا ونساء فى هذه الساعة يجاهدون فى سبيل الله وهل هناك ما هو أجل وأحب من الجهاد فى سبيل الله البشرى كل البشرى لها إن هى قبضت إلى الرفيق الأعلى هذه الساعة ... مشاعر سامية تختلط بشعورهن الإنسانى الناجم عن لوعة فراق الأخت الرقيقة الحانية . وهذه نساء يثرب يتوفدن إلى بيت رسول الله ﷺ للسؤال عن المحتضرة الجليلة . وقد لفتهن مشاعر متباينة ... القلق على الآباء والأزواج والأبناء والأخوة الذين يلاقون المنون على يد جبابرة قريش وصناديدها من المحاربين ، ومشاعر أخرى هى معنى الأعزاز والتقدير لهذه المحتضره بنت النبى ﷺ وزوجة ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه ... وهى تفارق الحياة فى هذه اللحظات الحاسمة وها هم رجال المدينة مؤمنين أو مشاركين العزاء . يحملون رفات رقية الجليلة الطاهرة ... إلى مثواها الأخير . وهم أيضا فى مشاعر متباينة . ففى هذه الساعة يلتقى الجمعان . ولا يعلمون وهم يحملون الرفات الطاهرة هل ستكون رفاتهم هى التالية ؟ مَنْ .... بعد أن فتحت مدينتهم يثرب من خلال انصارها النيران على جبابرة الحرب وسادة العرب من القرشيين ؟ .

مشاعر كثيرة دينية وانسانية ممتزجة ومتباينة ... إلا أن واقع الحال يقرر بأن ثالث الخلفاء الراشدين ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه

بقى إلى جوار الزوجة الحبيبه ، وقد اقتحمته الذكريات الحبيبة أيضا . ها هو يتزوجها – عليهما رضوان الله – بعد أن طلقت مع أختها أم كلثوم رضى الله عنها من زوجيها إبنا أبى لهب بأمر من القرآن الكريم . حيث نزلت فى حق أبو لهب الآية الكريمة : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾ حيث فرّق الشرك بين كل زوجين . وها هى رقية تقبل عثمان رضى الله عنهما ، وهى بنت أشرف الخلق زوجا لها ، وها هو عثمان يهاجر معها إلى الحبشة فرارا بدينهما من الفتنة والتعذيب . هاجرا وقد كانا قريبى عهد بالزواج . وها هو يتذكر وجه رقية المشرح الصبوح وقد زاده الانفعال جمالا وبهاءًا ، حين كانت تصغى إلى جعفر بن أبى طالب وهو يحاور النجاشى ملك الحبشة ، ويرن فى أغوار نفسه صوتها الرصين وهى تحدّث من معها من المهاجرات المؤمنات . ذلك الحديث الذى يريح النفس ويهفو إليه القلب ، ويفتح أبوابا للرجاء . كذلك لعله يتذكر يوم وفاة أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها وكيف خيم الحزن على أقطار نفس هذه الزوجة الحبيبة ، وكيف كان يواسيها . مع أنه كان مثلها مقدرا لفداحة المصاب . وكيف لا يقدر أوْ لا يحزن ... على سيدة نساء العالمين ، وعلى بنتها الزوجة الحبيبة .. تلك التى لف الحزن والالم ذلك الجسد النحيل حتى أصبحت مثل ريشة فى مهب الرياح . وتذكر أيضا يوم ركبا معا البحر عائدان ومعهما الصحابى الجليل الزبير بن العوام وزوجته هند بنت أبى أمية . وكيف كانت رقية سعيدة .... تطل الفرحة من محياها .... للعودة إلى الوطن الحبيب والأكثر إلى الأب الحبيب رسول الله ﷺ فكم طال فراق الحبيبين الوطن والأب .

وهل ينسى عثمان رضى الله عنه تلك اللحظة التى ارتمت فيها رقية فى أحضان الوالد الكريم . وهو يغمرها بعطف وحنان جديران بمقدم الإبنة العزيزة التى هاجرت من وطنها وذويها بسبب الإيمان برسالته !

وبين آونة وأخرى كان الزوج الجليل ينظر إلى ذلك الوجه الجميل الذى أصبح ذابلا يعلوه الاصفرار ، ويسمع بقلبه تلك الانفاس المضطربة التى تقاوم الاحتباس والتى تعلن عن قرب النهاية الحزينة ... تُرى هل انتهت الذكريات ؟ كيف وهرم من الصور كل واحدة تتزاحم مع أخرى . فهل ينسى مثلا هجرتهما الثانية من مكة إلى المدينة . يوم أذن الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بهذه الهجرة . وكيف توجت هجرتهما فى المدينة بما يبعث الفرحة والأمل ... يوم أنجبت له رقية رضى الله عنها طفلهما عبد الله . وكيف لا يكون مستبشرا قرير العين . وقد أصبح أبا لطفل جده رسول الله ﷺ . لكن يبدو حقا أن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن . لأن السعادة لم تدم . فقد اختطف الموت وحيدهما عبد الله ... إنه يتذكر يومها الجد العظيم محمد رسول الله وقد وضع الحفيد الطاهر فى حجره وهو يردد هامسا : « يرحم الله من عباده الرحماء » . لقد حزن الأب لفقدان إبنه من نسل خير البشر ، ومرضت الأم وأستفحل بها المرض . الأمر الذى جعل زوجها يبقى إلى جوارها متخلفا عن الجهاد فى سبيل الله .

وفى الجانب الآخر فى بدر يلتقى الجمعان فى معركة ضاربة تحدد المصير بين الحق والباطل . وهنا فى المدينة يلف الجميع الصمت الذى يسبق الموت ، فها هى رقية رضى الله عنها تلفظ الأنفاس الأخيرة ،

والجميع حولها تعتصرهم الأحزان والآلام الجميع هنا عثمان زوجها وأم كلثوم والزهراء شقيقتيها حولها كل فى فجيعته . فجيعة الزوج عثمان رضى الله عنه فى زوجته فجيعتان واحدة بفقدان الزوجة الحبيبة والثانية لإنقطاع نسبه برسول الله . كذلك فجيعة أختيها فجيعتان . واحدة بسبب فراق الشقيقة الغالية والثانية بسبب الاحساس الحاد الذى يساورهما يومئذ حيث تموت رقية دون أن ترى أبيها أو يراها . أهكذا تفارق الدنيا رقية إبنة الرسول وذات الهجرتين فى سبيل الله دون أن يطمئنها رسول الله ويباركها بالنظرة الأخيرة ؟ أهكذا يعود الأب الكريم وفرحة النصر تملأ كيانه ليفاجىء بخبر اليم ينتظره ... إن الجميع حولها يعتصرهم الأسى والألم ويفتتهم التوتر والقلق ... وهى أمامهم تعانى سكرات الموت .

وآخيرا تهمس الشفاة الرقيقة الذابلة همسا متقطعا بالشهادة التى تكون هى آخر صلة لها بالدنيا ومن عليها . عندئذ تجهش أم كلثوم باكية ، وتصرخ الزهراء « أبتاه ... أبتاه » ومَنْ غيره عليه أفضل الصلاة السلام يكون اسمه نداء النجدة للمحتاجين ؟ مَنْ غيره عليه الصلاة السلام بمستطيع أن يمسح آلام المنكوبين ؟ ويضرب عثمان رضى الله عنه كفا بكف متمتما باكيا متألما : ﴿ أنا لله وإنا اليه راجعون ﴾ .

وتجهز رقية رضى الله عنها تجهز وتدفن فى رمضان السنة الثانية للهجرة ... فى غيبة أبيها الذى كان هناك فى ميدان الجهاد فى سبيل الله □

قلادة خديجة تحرر أسيرا

وكان أبو العاص بن الربيع ... زوج السيدة زينب بنت الرسول ﷺ ، ضمن أسرى المشركين يوم بدر ... لقد أسره الأنصارى « خراش ابن الصمة » ، لتفديه زوجته بنت الرسول ﷺ بقلادة كانت والدتها ، وخالته فى الوقت نفسه أم المؤمنين خديجة بنت خويلد قد أهدتها إياها يوم زواجها منه .

أما كيف ذلك ... فلندع ابن هشام والدكتور هيكل والسحار

والشرقاوى وعبد الوهاب حموده وغيرهم ممن إهتموا بالسيرة وأعادوا كتابتها يحدثوننا من خلال كتبهم .

وفى الطريق من بدر إلى المدينة كان أبو العاص بن الربيع ينساق مع رهط الأسرى . ولكنه رغم ذلك كان مقدرا مستأثرا من الأنصار . حيث كانوا يفضلونه على أنفسهم راضين . فإذا وقعت قطعة الخبز فى أيدى أحدهم دفعها اليه ، وإذا ظفر أحدهم بشربة ماء قدمها له راضيا ، وإذا سازوا كانوا يحملونه ويمشون ، وإذا طلب شيئا كانوا يلبونه مسارعين . مما جعل أبو العاص يفكر فى ذلك الدين الذى جاء به والد زوجته محمد رسول الله ﷺ . فهو يعرف الأنصار من أوس وخزرج قبل الإسلام . مما كانوا على مثل ذلك الخلق المتين . إذن فالذى فعله محمد عليه السلام كان معجزة أتت ثمارها فى بضعة شهور . وينقاد أكثر وأكثر إلى تفكير سليم مبرأ عن الأهواء . فإذا بفؤاده يهوى إلى ذلك الدين القيم الذى يصنع مكارم الأخلاق . لكن كيف وكيف وجذوره ما برحت ضاربة فى غياهب جبروت قريش وجهالتها .

وشرد به الخيال إلى أيام أن كان رسول الله ﷺ بينهم فى مكة يزعم أنه نبى . فرأى آبائه وأعمامه وأبناء عمومته من سادات قريش يكذبونه ويعذبونه ويتآمرون ليقتلونه بأيدى فتيان كل القبائل . ثم يتوجهون اليه ... إلى أبى العاص قائلين : « فارق صاحبتك بنت محمد ونحن نزوجك أى إمرأة إن شئت ... من قريش أو غيرها » . وكان يرد عليهم قائلا : « لن أفارق صاحبتى ، وما أحب أن تكون لى امرأة غيرها » .

لقد رفض أن يطلق إبنة محمد عليه الصلاة والسلام فهو يحب زينب رضى الله عنها . كما يجل أباها فيما بينه وبين نفسه . ولولا خشيته من أن يقال إنه ما اسلم إلا خوفا من الاسر أو القتل لأعلن على الملأ شهادة أن لا أله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

* * *

قبل الإسلام تزوج أبو العاص بن الربيع من كبرى بنات الرسول زينب رضى الله عنها . وكان من رجال مكة المعدودين مالا ، وأمانة ، وتجارة ، وكانت خديجة رضى الله عنها خالته . فسألت رسول الله ﷺ أن يوافقها على زواج أبو العاص من زينب رضى الله عنها . فزوجهما . وكانت تعده بمنزلة ولدها . فلما بعث أبو زوجته نبيا رسولا آمنت به زوجته وبناته رضوان الله عليهن ، وبقى أبو العاص على شركه . وكان رسول الله ﷺ فى بدء دعوته لا يحل بمكة ولا يحرم . هو مغلوب على أمره ، فرغم أن الإسلام فرّق بين زينب رضى الله عنها وبين زوجها أبى العاص . إلا أن رسول الله ﷺ كان لا يقدر أن يفرّق بينهما . فأقامت بنت رسول الله ﷺ على اسلامها وبقى هو على شركه . حتى هاجر الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى المدينة . بقيت زينب رضى الله عنها مع زوجها فى مكة . بقيت فى دار أبيها . وقد خلت دار أبيها ﷺ من كل الأهل والأحباب ، خلت إلا من أطياف هؤلاء الذين هجروها كارهين . ولطالما وقفت زينب بهذه الدار المقفرة الموحشة تسألها : أين مَنْ كانوا بالأمس يملئونها حياة وحركة . أين محمد وخديجة ؟ وأين رقية وأم كلثوم والزهراء ؟ وأين القاسم والطيب ؟ فأما خديجة وولداها القاسم والطيب فإلى غير مآب ، وأما محمد وبناته رقية أم كلثوم والزهراء فإلى هجرة واغتراب .

وها هو أبو العاص يسير فى صفوف أسرى الأنصار فى طريقهم إلى المدينة . لكن خياله قفز به إلى مكة حيث غادر الزوجة الوفية ليحارب أباها النبى الكريم . مع سفهاء قومه من المشركين . إنه وهو فى غمرة حماسه لم يفكر فى مشاعر هذه الزوجة العظيمة لكنه الآن وهو أسير يحس فداحة ما صنع ليته فكر فى هذه الزوجة المخلصة ، وهى ممزقة الآن بينه وبين أبيها وقد استولى عليها خوف قاتل أن تفجع فى أحدهما . هو على ثقة من أنها تحبه ، ولكنه لا يشك فى عظم حبها لأبيها ... ليت أحد يحمل إلى هذه الزوجة العظيمة أن زوجها الحبيب بين يدى رسول كريم . ليسكن قلق نفسها ، وينقشع خوف قلبها وينزل بها الأمن والسكينة .

ويستقر – فى المدينة – رأى رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم على إفتداء الاسرى ، ويقدم عمرو بن الربيع فى فداء أخيه أبى العاص . فيقدم إلى رسول الله ﷺ ما بعثت به إبنته زينب رضى الله عنها فى فداء زوجها مال ومعه القلادة المهداة لها من والدتها خديجة رضى الله عنها . ويترقرق الدمع فى عينى رسول الله ويرق لهذه القلادة رقة شديدة . فهى بعينها قلادة الطاهرة سيدة نساء قريش أم المؤمنين . التى أول من صدقته حين كذبه الناس . أنه يذكرها على الدوام فى أفراحه وأحزانه . ثم نظر إلى مَنْ حوله وقال فى صوت متهدج : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فأفعلوا » فقالوا : « نعم يارسول الله » فأطلقوه وردوا عليها الذى لها . على شرط أن يطلق زوجته رضى الله عنها فقد فرّق الإسلام بينهما . حتى أنه حين وصل الدار والتقى بالزوجة الوفية . نظر إليها وقال :

« تأهبی یازینب لتلحقی بأبیك » . ونظرت الیه وهی لا تكاد تصدق ما تسمعه حیث یؤكد ما یقول : « فرّق بینی وبینك الإسلام » لقد وعد وهو یعلم أن هذا الوعد یمزق قلبه . لكن وعد الحر دین علیه .

ورغم أن زینب رضی الله عنها كانت تغالب عواطفها بعد ما سمعت حدیث زوجها إلا أنها قالت صادقة : السمع والطاعة لله ولرسوله » .

وبینما هی تتجهز للحاق بأبیها سیدنا محمد ﷺ لقیتها هند بنت عتبة التی قتل أبوها وعمها وأخوها یوم بدر فقالت لها : « الم یبلغنی یابنت محمد أنك تریدین اللحوق بأبیك ؟ » فقالت زینب رضی الله عنها حذرا : « ما أردت ذلك » فقالت هند : « أی بنت عم لا تفعلی . إن كانت لك حاجة فی متاع ... أو مال تبلغین به أبیك فإن عندی حاجتك . فلا تضطنی (أی تستحی) منی فأنه لا یدخل بین النساء ما یدخل بین الرجال » قالت زینب رضی الله عنها : « والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ، ولكنی حضتها فأنكرت أن أكون أرید ذلك . ثم تجهزت » .

وقدم لها « كنانه بن الربیع » أخو زوجها بعیرا فركبته وأخذ قوسه ؛ وخرج بها نهارا یقود بعیرها وهی فی هودج لها وتحدث بذلك الرجال من قریش والنساء ، وفكروا كیف تخرج إبنة محمد (ﷺ) من بینهم هكذا بسهولة . وخرجوا فی طلبها ، وكان أول من لحق بها هو « هبار بن الأسود » و « نافع بن عبد القیس » . فروعها « هبار » بالرمح وهی فی الهودج وكانت حاملا . فوقعت بهودجها علی صخرة ، وغدت تنزف دما . وهنا وقف كنانه حاملا قوسه وقائلا : « أحلف بالله لایدنو الیوم منها رجل

إلا وضعت فيه سهما » فرجع الناس عنه . لكن جاءه أبو سفيان بن حرب وقال له : « أيها الرجل أكفف عنا نبلك حتى نكلمك » فكف . وأقبل أبو سفيان ومن معه وقال : « إنك لم تحسن ولم تصب . خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية جهارا وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد أبيها . فيظن الناس إذا أنت خرجت بإبنته اليه جهارا أن ذلك عن ذل أصابنا . وأن ذلك منا وهن ، ولعمرى ما لنا فى حبسها من أبيها من حاجة ، وما فيها من ثأر ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الاصوات وتحدث الناس بردها . الحقتها بأبيها ... » .

ورأى كنانه بن الربيع أن يعود بها استجابة لتوسل أبى سفيان ، وحفظا لحياة زوجة أخيه .

وفيما كانت زينب رضى الله عنها فى طريق عودتها أجهضت ما فى بطنها وأصابها ضعف شديد . فلما وصلت دار أبى العاص هرع مَنْ فيه إليها يحملونها وهى غارقه فى دمها .

مرت بعض ليالى رمضان بمكة ولا حديث للناس إلا حيث الحرب والقتل والأسر والفداء . وغدا العباس (عم الرسول ﷺ) يتحدث بين قومه من القرشيين عما لقوا إبان أسرهم من الأنصار بالمدينة . ولم يسأله أحد : « لما فرّق رسول الله - ﷺ - بين إبنته زينب وزوجها أبى العاص ولم يفرق بينه (العباس) وبين أم الفضل مع أن الحالة واحدة ؟ » فأبو العباس مشرك وزوجته أم الفضل مسلمة أيضا . ولو دار ذلك السؤال فى رؤوسهم لأيقنوا أنه على دين ابن أخيه ﷺ . وإنما ما بقى بينهم فتظاهرا بالشرك . إلا ليكون عينا عليهم للمسلمين .

وها هى زينب رضى الله عنها ، تسترد قواها ، ويهدأ الصوت عنها ، فيحملها كنانه بن الربيع ويخرج ليلا إلى حيث يوجد زيد بن حارثة ومعه رجل من الانصار كانا ينتظرانها حتى أقبل كنانة بن الربيع وسلمها للرجلين . لينطلقا بها إلى رسول الله ﷺ . الذى يتقدم خافق القلب لاستقبال الأبنة العزيزة العائدة من دار الشرك إلى دار الإسلام .

وتصدق نظرة النبى ﷺ فى صهره أبو العاص بن الربيع . فها هو يصدق فيما وعد فور وصوله مكة . فيعمل جاهدا على رد زينب رضى الله عنها إلى والدها صلوات الله وسلامه عليه ، لتقيم هى بالمدينة ، ويقيم هو بمكة. حتى إذا كان قبل الفتح خرج أبو العاص فى تجارة إلى الشام . وفى طريق العودة لقيته سرية من المسلمين ، فأخذوا ما معه بينما نجا هو بجلده . وأنتظر حتى أسدل الليل ستائره . فدخل على زينب بنت رسول الله ﷺ . مستجيرا بها . وطالبا معاونتها . فطلبت ذلك من والدها صلوات الله وسلامه عليه . فقال بحنان بالغ : « أى بنية اكرمى مثواه . ولا يخلصن اليك فإنك لا تحلين له » .

وبعث عليه الصلاة والسلام إلى السرية التى استولت على مال أبى العاص الذى إئتمنته عليه مكة وقال : « إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنَّا نحب ذلك ، وإن رأيتم . فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به » .

فقالوا : « يارسول الله : بل نرده عليه » .

واسترد أبو العاص المال ، وعاد به إلى مكة ، وأدى لكل ذى حق

حقه ثم قال : يا معشر قريش هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا فجزاك الله خيرا فقد وجدناك وفيا كريما .

وهنا قال أبو العاص بن الربيع : فأنا أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله . والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم . فلما أداها الله اليكم وفرغت منها .«اسلمت وجهى لله ولرسوله » .

وعاد إلى المدينة إلى حيث الزوجة المخلصة الوفية التى افتدته بأغلى ما عندها ، وأعز ذكرى تركتها والدتها أم المؤمنين خديجه رضى الله عنها وهى القلادة □

زواجــه
مــن
أم
المساكين

وأم المساكين . هى السيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها ، ذكرت بهذه الصفة فى السيرة النبوية لإبن هشام حيث قال : « وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم » وفى كتاب الإصابة فى تمييز الصحابة قال : « فكان يقال لها أم المساكين لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم » وشبيه بذلك ما جاء فى كتابى « الطبرى » و « شذرات الذهب » أو فى الكتب الحديثة العربية منها وفى مقدمتها « حياة محمد »

للدكتور هيكل قال : « ولم تكن ذات جمال ، وإنما عرفت بطيبتها وإحسانها حتى لقبت بأم المساكين » أو الكتب الأجنبية حيث قال عنها بودلى فيما كتب عن أمهات المؤمنين : « وكانت طيبة خيرة » .

والملاحظ فى هذه الكتب قديمها وحديثها أن أم المؤمنين لم تنل حظا كبيرا من أحاديث كتب السيرة النبوية شأنها شأن امهات المؤمنين . فلا نجد حتى فى الكتب القديمة وأبرزها السيرة النبوية لإبن هشام أو الطبقات الكبرى لإبن سعد أو تاريخ الطبرى أو كتاب الاصابة فى تمييز الصحابة وغيرها ... فى الحديث عن هذه السيدة الجليلة ألِا سطورا متفرقات . وبالطبع كان لذلك أثره فى الكتب الحديثة التى إهتمت بتسجيل أحداث السيرة النبوية ، حتى تلك الكتب التى جعلت كل إهتمامها الحديث عن « نساء النبى » وفى مقدمتها ثلاثة كتب بنفس العنوان تقريبا « نساء النبى » لكل من الدكتورة بنت الشاطىء ، والدكتور محمد بدر والاستاذ سعد هارون عاشور . لا يزيد الحديث عن هذه السيدة الجليلة فى هذه الكتب عن صفحات تعد على أصابع اليد الواحدة .

وبعد تأمل طويل لهذه الحالة التى تكاد تنفرد بها أم المساكين زينب بنت خزيمة دون غيرها من أمهات المؤمنين تبين أن عدم الإطالة فى الحديث عن هذه السيدة الفضلى يرجع إلى واحد من هذه الاسباب إن لم تكن جميعها :

١ – لأن حياة هذه السيدة كزوجة للنبى ﷺ لم تدم طويلا فمن الرواه من يقول أنها دامت شهرين وآخرون يقولون أنها دامت ثلاثة والبعض

الثالث يقول أنها لم تزد عن الثمانية شهور أى حياتها الزوجية مع النبى ﷺ لم تصل العام الواحد . وهو زمن قصير بالقياس إلى الفترات التى حظين بها مثيلاتها من أمهات المؤمنين كخديجة بنت خويلد أو عائشة بنت الصديق أو سودة بنت زمعه رضوان الله عليهن .

٢ - وربما كانت هذه الفترة القصيرة التى قضتها السيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها فى بيت النبوة لها بريقها الخاص بالنسبة للكاتب أو المؤرخ . لو تخللتها أحداثا جليلة كنزول الوحى مثلما حدث بالنسبة للسيدة خديجة أو الهجرة أو فتح مكة .

٣ - كذلك لم تكن السيدة زينب رضى الله عنها من نساء النبى اللائى اشتهرن بالعلم أو حتى رواية الحديث عن النبى ﷺ مثلا كالسيدة عائشة رضى الله عنها التى اشتهرت بالفقه ورواية الحديث أو السيدة أم سلمة رضى الله عنها التى اشتهرت برواية الحديث .

٤ - لم يكن للسيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها ذرية من النبى ﷺ ، ولم تترك حتى بعد وفاتها ولدا لها يحمل اسمها بين أمهات المؤمنين رغم أنها ماتت فى سن الثلاثين . فلم يكن شأنها شأن السيدة خديجة أم القاسم الذى كان يكنى به النبى ﷺ وأم عبد الله الطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء رضى الله عنهم ، أو كزوجته عليه الصلاة والسلام مارية القبطية التى أنجبت إبراهيم رضى الله عنه . فمن هذه الزاوية بالذات ليست للسيدة زينب بنت خزيمة جاذبية تاريخيه تضاف إلى غيرها من الفضائل فتخطف إنتباه الكاتب أو المؤرخ .

٥ - لم تكن السيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها إبنة واحد من صحابة رسول الله ﷺ . ممن حملوا معه عبء الدعوة الإسلامية وواصلوا الطريق من بعده عليه أفضل الصلاة والسلام . مثلا كالسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضوان الله عنهما أو كالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

٦ - لم يبنى زواج النبى ﷺ من السيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها على سبب من الأسباب القوية التى تخطف إنتباه الكاتب أو المؤرخ ومن هذه الأسباب جذب كبار القبائل بمصاهرتها كزواجه ﷺ من « سودة بنت زمعه » رضى الله عنها حتى يكون فى هذا الزواج تأليف بنى عبد شمس اعدائه وأعداء بنى هاشم حيث كان ينتهى نسبها لأبيها أو تشريف لبنى النجار حيث ينتهى نسبها لأمها . أو يكون الزواج بغرض التشريع كزواج المسلم من المسيحية أو اليهودية كزواجه عليه الصلاة والسلام من مارية القبطية ، وصفية بنت حيى بن أخطب الإسرائيلية . أو أن يكون الزواج بغرض إبطال بدعة من بدع الجاهلية كتحريم زواج الأب من زوجة الابن بالتبنى كما حدث فى زواجه عليه الصلاة والسلام من السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها حين تزوجها النبى ﷺ من عتيقه ومتبناه زيد بن حارثه إبطالا لهذه البدعة المتوارثة عن الجاهلية .

٧ - كذلك لم تكن السيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها قريبة من النبى ﷺ كصلة قرابته من زوجاته القرشيات . اللائى يعتبرن بنات عمومته . وإنما كان نسبها رضى الله عنها مع النبى ﷺ يلتقى عند جدهم مضر . فكانت أبعد زوجاته القرشيات من ناحيه صلة القرابة .

إلا أن هذه الأسباب وغيرها لا تقلل من قدر هذه السيدة الجليلة . فحسبها أن تكون واحدة ممن كرمهن الله ورسوله بشرف الإقتران بالنبى ﷺ لتكون من بعد فى التاريخ الإسلامى واحدة من أمهات المؤمنين .

والحديث عن السيدة زينب بنت خزيمة وغيرها من زوجات النبى ﷺ ربما يجرنا إلى الحديث عن الحكمة فى تعدد الزوجات بالنسبة للنبى الكريم . وهى مسألة خاض فيها المستشرقون بجهل فاضح أو بغرض سيىء . ولو أنهم شاءوا الحقيقة وحدها بمنهج موضوعى . لدرسوا الحياة الإجتماعية للنبى ﷺ . وعندئذ كانوا أكثر تجنبا لهذا الجهل وذاك التعصب .

إن حياة النبى الإجتماعية – بصورة مختصرة – تنقسم إلى أربعة مراحل .أولها مرحلة العزوبية وكانت حتى الخامسة والعشرين ، والمرحلة الثانيه بدأت من الخامسة والعشرين حتى الثالثة والخمسين وفيها تزوج السيدة خديجة بنت خديلد وبقى غير متزوجا سنتين بعد وفاتها رضوان الله عليها . والثالثة تبدأ من الخامسة والخمسين حتى الستين وفيها تعددت الزوجات لحكمة . حيث بدأت مع السنة الثانية للهجرة المعروفة فى التاريخ الإسلامى بسنة القتال . وما بعدها من سنوات كلها حروب وفتوحات . وهنا وقع التعدد لأسباب كثيرة لم تكن – كما يرى الأستاذ عبد الوهاب حمودة – المتعة واحدة منها . وأى متعة هذه تلك التى تأتى بعد الخامسة والخمسين لإنسان كالنبى ﷺ انصرف لعبادة ربه ، والدعوة لدينه ،

والإعداد للمعارك والحروب ، وإقامة أول مجتمع إسلامى ، وبناء ما عرف بعد ذلك بخير أمة أخرجت للناس ! لو كانت المتعة فى المقام الأول كما يدعى هؤلاء المستشرقون فلماذا لم تأت قبل الخامسة والعشرين ؟

إن أصدق شاهد وخير دليل فى أن تعدد زوجاته كان له حكمة هو زواجه عليه أفضل الصلاة والسلام من السيدة زينب بنت خزيمة إن هذا الزواج فى حد ذاته يؤكد سمو دافعه وأنسانيته . فقد كان بسبب ترملها بعد أن استشهد زوجها عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فى يوم بدر . هذا إلى جانب قيامها بدور فى هذه المعركة حتى اتفقت أكثر الروايات على أنها بليت من الناحيتين بلاء حسنا ولهذا كان زواج رسول الله منها وهو قد تجاوز الخامسة والخمسين .

وقد اختلفت الروايات فى شأن تاريخ زواجها . فمع أن هذه الروايات متفقة تماما على أن الزواج تم فى شهر رمضان إلا أن الاختلاف كان فى أى من الأعوام . مثلا نجد فى رواية عن ابن الكلبى يقول : « فتزوجها النبى ﷺ فى شهر رمضان سنة ثلاث . فأقامت عنده ثمانية أشهر وماتت فى ربيع الآخر سنة أربع هجرية » بينما نجد الطبرى يقول : « وفى هذه السنة – يقصد الرابعة – تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمه من بنى هلال فى شهر رمضان ... » .

ويقول ابن العماد فى شذرات الذهب فى أخبار السنة الثالثة للهجرة : « فى رمضان دخل النبى ﷺ بزينب بنت خزيمة العامرية ، أم المساكين ، وعاشت عنده ثلاثة أشهر ثم توفيت » .

على أى حال الذى يهمنا أن يكون تاريخ الزواج فى شهر رمضان وهو ما أتفق عليه الرواة . حيث خطبها النبى إلى نفسه ، فجعلت أمرها اليه ، فتزوجها وأصدقها إثنى عشر أوقية ونصف من الفضة ، وعاشت معه إلى أن توفيت . فصلى عليها رسول الله ﷺ . ودفنت فى البقيع إلى جوار أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن . وكانت هى الزوجة الثانية بعد السيدة خديجة بنت خويلد التى توفيت فى حياة النبى الكريم □

مولــد سبطه
الأكبر الحسن

وفى رمضان من العام الثالث للهجرة . وهو عام التمحيص فى التاريخ الإسلامى أى التصفية والتطهير لقوله تعالى : ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ اشارة إلى يوم أحد حين خرج مشركو قريش فى الأيام الأولى من شوال حيث كانوا يستعدون طوال رمضان السنة الثالثة نفسها . خرجوا وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب ليثأروا من المسلمين . لما أصابهم فى يوم بدر وكان كما سنرى بعد قليل درسا مستفادا لبعض المسلمين الذين تعجلوا النصر والغنيمة ، وعبرة للذين لم يأخذوا حذرهم من المنافقين أو من اليهود . فى هذه السنة الثالثه ، وفى شهر رمضان وبالتحديد فى منتصفه ولد

الحسن بن الامام على وفاطمة الزهراء رضى الله عنهم جميعا . ليكون السبط الأكبر للرسول ﷺ من إبنته الزهراء .

والإمام الحسن بن الإمام على رضى الله عنهما . جاء إلى الدنيا نتيجة زواج غاية فى التواضع والبساطة بدأ حيث توجه الإمام على كرم الله وجهه إلى مجلس النبى ﷺ . حتى كان فى مواجهته فوقف يترجف رهبة . أهذا هو الأمام على الذى صال وجال يوم بدر حتى قيل أن هذه المعركة قدمت فارسين الواحد منهم يماثل الف فارس أحدهما أسد الله ورسوله الحمزة بن المطلب والثانى الإمام على بن أبى طالب . أهذا هو الإمام على الذى كان أول من آمن بالنبى ورسالته فى قريش من الفتيان وتحمل ما لا طاقه لبشر من أجل نشر هذا الدين وكان صامدا شجاعا لا يبالى أحد من صناديد قريش أو جبابرتها . أهذا هو الإمام على الذى أخذ على عاتقه أخطر مهمة يستطيعها إنسان فى ذلك الوقت وهى أن ينام فى المكان الذى تعوَّد أن ينام فيه الرسول ليستطيع النبى الهجرة . صنع هذا مضحيا بنفسه لأنه يعلم جيدا أن فى هذه الساعه سوف يقبل عتاة المشركين للقضاء على محمد ﷺ بضربة قوية من فتيان القبائل .

نعم هذا هو الإمام على كرم الله وجهه وأما لماذا يرتجف أو لا يستطيع الكلام وهو البليغ الشاعر المتكلم ... فبسبب الحياء الذى كان سمة من سمات هذا الدين العظيم .

وفطن النبى إلى اضطرابه وارتجافه وعدم قدرته على الكلام فقال عليه الصلاة والسلام : « ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ فهم أن يتكلم فلم

يستطع فقال له النبى ﷺ : لعلك جئت تخطب فاطمة ؟ فهمست شفتا الفارس المغوار بكلمة متقطعة الحروف هى : نعم . فقال النبى ﷺ : هل لك من شيء ؟ رد على رضى الله عنه : لا . فقال النبى ﷺ : فأين درعك الحطمية ؟ رد على : هى عندى قال النبى : فاعطنيها . ودخل ﷺ على فاطمة وقال لها : أى بنية إن ابن عمك عليا قد خطبك .... فماذا تقولين ؟ فأطرقت فاطمه رضى الله عنها ثم قالت : « كأنك ياأبت . إنما ادخرتنى لفقير قريش . فرد عليها النبى ﷺ : ما تكلمت فى هذا حتى أذن لى الله فيه من السماء . قالت فاطمة : « رضيت بما رضى الله ورسوله » .

وجاءت ليلة الزواج . فبعث بالدرع إلى سوق بدر فبيعت بدراهم معدودة ، وضعت فى حجر الرسول عليه الصلاة والسلام . فقبض منها قبضة وقال : أى بلال ابتع لنا بها طيبا .

وما أن تم العقد ، وجهزت فاطمة رضى الله عنها لتذهب إلى بيت الزوجية . حتى كانت زيارة النبى ﷺ للعروسين قبل الزفاف داعيا ومبتهلا : « اللهم أنى أعوذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .. اللهم بارك فيهما وبارك لهما فى شملهما » .

ورزقا بذرية صالحة كان أكبرها الأمام الحسن رضى الله عنه .

والحق أن كتب السيرة وفى مقدمتها السيرة النبوية لإبن هشام وتاريخ الخلفاء للسيوطى ثم كتابات الدكتور هيكل والأستاذ العقاد

والأستاذ السحار حرصت جميعها على وصف لحظات ميلاد الحسن وشقيقه الحسين رضوان الله عنهما . نظرا لمكانتهما فى الإسلام . هذه المكانة المستمدة من إعتزاز جدهما الرسول ﷺ بهما . ولما يكتنف هذا الميلاد من أحداث غير عادية .

ففى مولد الحسن رضى الله عنه حقيقة تشبه الخيال . حيث نقرأ أنه فى ليلة استيقظت أم الفضل زوجة العباس عم الرسول ﷺ من نومها وهى تحس إنقباضا . فقد رأت رؤيا أزعجتها ، وفكرت فى أن تقص رؤياها على النبى ﷺ . لكنها ترددت . فكيف تقص عليه أنها رأت عضوا من أعضائه يقطع ويلقى به فى بيتها ؟

إن ما رأته – بلا ريب – يزعجها . وعزمت على ألا تبوح به . وأخذت تغدو وتروح ، وما تزال الرؤية المفزعة ماثلة فى ذهنها . تقلقها وتحيرها . حاولت أن تنساها . لكن دون جدوى . فلم تطق صبرا على كتمانها فأنطلقت إلى رسول الله ﷺ وقالت له فى صوت حزين : « يارسول الله رأيت كأن عضوا من إعضائك فى بيتى » .

وأحست أم الفضل ببعض الراحة بعد أن باحت بالسر الذى طال كتمانها عليه . ورنت إلى النبى لترى أثر حديثها فى وجهه . فإذا به عليه أفضل الصلاة والسلام يبادر قائلا : « خيرا رأيته . تلد فاطمة غلاما فلترضعينه » .

وتمضى الأيام والليالى بطيئة متثائبة ثقيلة . فهذا الجسد الضعيف

تهده آلام الحمل . وكان يكفى لهذا الجسد ما ينوء به من آلام . ولكن يضاعف من الاحساس بالالم شظف الحياة نفسها التى كان يعيشها كل من الإمام على وفاطمة الزهراء رضى الله عنهما تحت سقف بيت لا يجد قوت يومه كاملا . إلى أن يكون يوم المخاض . حيث يشق صوت المولود الطاهر هدوء هذا البيت . فإذا هو بالفعل غلاما . كما تنبأ جده الكريم .

وجاء النبى صلوات الله وسلامه عليه . يطلب رؤية حفيده فيخرجوه اليه فى خرقة صفراء . فيرمى بها ويقول : « الم أنهكم أن تلفوا المولود فى خرقة صفراء ؟ » ويأمر بأن يلف المولود بأخرى بيضاء . ويقطع سرته وهو يقول : « اللهم إنى أعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم » .

وفى اليوم السابع جاء النبى ﷺ وقال : « أرونى إبنى ، وما سميتموه ؟ » فقال والده الإمام على كرم الله وجهه : « حربا » فقال رسول الله ﷺ : « بل هو حسن » ونحر كبشا ، وأعطى القابلة فخذا ودينارا . وقال عليه الصلاة والسلام لابنته : « يافاطمة احلقى رأسه ، وتصدقى بزنة شعره فضة » .

وهكذا غدا المولود قرة عين أمه وأبيه رضوان الله عليهما حتى ان أمه كانت حين تهدهده تقول فى فرحة بالغة شعرا منه :

اشبه أباك ياحسن   وأخلع عن الحق الرسن
وأعبد الها ذامنن   ولا توالى ذا الاحن

وما انقضى إلا شهرٍ وبعض شهر من ميلاده الأول حتى ولد الحسين

رضى الله عنه ليسميه بهذا الاسم جده النبى الكريم . وليكون الاسمين اسلاميين لم يسبق أن تسمى بهما أحد فى الجاهلية .

ومع الأيام ينمو الطفل ... وترضعه أم الفضل زوجة العباس رضى الله عنهما كما طلب منها النبى ﷺ قبل أن يولد ... ثم يحبو ويخطو ويمشى ويعرف الطريق إلى مجلس جده النبى الكريم فى البيت أو فى المسجد . فإذا وقف جده النبى ﷺ يصلى جاء الحسن وهو ساجد فجلس على ظهره . فيرفعه النبى . حتى إذا فرغ من صلاته وضعه فى حجره . فكان الصغير يدخل اصابعه فى لحية الجد الكريم . والنبى يضمه فى حنان ويقبله ويقول : « اللهم إنى أحبه فأحبه » حتى إذا رأى بعض المسلمين ذلك الحب قالوا : يارسول الله ما رأيناك تصنع بهذا الصبى شيئا ما رأيناك تصنعه بأحد » .

وروى البخارى عن أبى بكر قال : « سمعت النبى عليه الصلاة والسلام على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة يقول : « إن إبنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » كما روى البخارى أيضا عن عمر رضى الله عنه : « قال رسول الله ﷺ عن الحسن والحسين « هما ريحنتاى من الدنيا » .

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال : « قال رسول الله ﷺ الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » كما روى الترمذى عن أنس بن مالك رضى الله عنه : « سئل النبى ﷺ أى أهل بيتك أحب إليك ؟ قال الحسن والحسين » . وعن ابن عباس قال : « أقبل النبي عليه الصلاة

والسلام وقد حمل الحسن على رقبته ، فلقيه رجل فقال نِعْم المركب ركبت ياغلام ! فقال النبى ﷺ ونعم الراكب هو » .

وكذلك يروى أن النبى ﷺ كان يخطب فى المسلمين فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران . يمشيان ويتعثران فنزل عليه الصلاة والسلام من المنبر . وحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : صدق الله العظيم : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويتعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما » هكذا بلغ حب النبى ﷺ لحفيديه .

ولقد تولى الحسن الخلافة بعد مقتل أبيه الإمام على عليهما رضوان الله : فأقام بها ستة أشهر ثم تنازل عنها لمعاويه بن أبى سفيان حقنا لدماء كثيرة وتحققت نبوءة جده فى أنه يصلح الله به بين فئتين من المسلمين . كما تحققت نبوءة جده النبى الكريم . حيث أن الحسن رضى الله عنه قد مات مسموما □

يوم أحد

وتتفق الكتب قديمها وحديثها المهتمة بالسيرة على أنه كان تشابك الجمعين فى موقعة أحد لم يتم فى رمضان . غير أن مقدمات هذا التشابك والاستعداد له تم بالفعل فى رمضان من السنة الثالثة للهجرة . وأن هذا هو المهم . لأنه حشد القوى للمعركة وظهور مقدماتها وملامحها هو المعوَّل عليه عند خبراء الحرب وكتابِّها . وهو ما حدث بالنسبة ليوم أحد فلم تمض ستة أيام الأولى من شوال بعد رمضان مباشرة إلا وكانت الحرب بين المسلمين والمشركين تضع أوزارها فى أحد بكل ما سبقها من تعبئة جهود ، حشد قوى ، وسرعة حركة ، ونقل عدة وعتاد إلى مسرح الحرب نفسها .

كان هذا يحدث من الطرفين إلا أنه كان عند المشركين يحدث بشكل مكثف وبصورة واضحة ومزهلة . فما زالت محنة بدر تؤرق رؤوس الكفر ، ومازالت هزيمة صناديد وسادات قريش تورثهم الخزى والعار . ولن يزول كل هذا إلا بالدماء . حتى تعود لقريش هيبتها بين القبائل وسيادتها بين العشائر ولاقتصادها المنهار الاستقرار والازدهار .

وحتى يكون دماء المسلمين ونبيهم الكريم مراقا على طول الجزيرة العربية وعرضها . حرصت قريش ألا تواجه المسلمين بمفردها بل تحشد لهم كل القوى المناهضة للإسلام أو حتى صاحبة المصالح فى ذلك . ولذلك تحرك لمناهضة الإسلام ونبيه الكريم هم اليهود تبعهم هؤلاء المنافقين على مستوى القبائل العربية حول مكة والمدينة إلى جانب قريش .

ولقد وجه الدكتور عبد العزيز كامل هذه المادة التاريخية الموجودة فى كتب السيرة القديمة توجيها علميا فى كتابه « دروس من غزوة أحد » يجعل المرء يندهش لهذه الاستعدادات فى الحرب أو فى السياسة لدى الطرفين المؤمنين والمشركين وإن كان الهدف لديهما يختلف ولاشك .

لقد رأت القوى الثلاثة القرشيون فى مكة واليهود فى المدينة ، والمنافقون المنتشرون حول مكة والمدينة فى كل قبائل العرب أن انتصار الإسلام فى بدر هدد مصالحها ووجودها . ولم تكن هذه الحقيقة بخافية على الرسول ﷺ . ولكنه — عليه الصلاة والسلام لم يرد أن يكون البادئ بالعدوان . وتلك لعمرى درس فى الإستراتجية يعرفه جيدا أهل الحرب والسياسة . أن ننتظر لنرى ما يفعلون . فى يقظة تامة . تسير الأحداث

بشكل يؤكد أن النبى ﷺ لم يكن فى المدينة منقطعا عما يحيكه له اليهود فيها ، ولا ما تتآمر به القبائل العربية ، ولا عن الإتصالات المريبة بين قريش واليهود . بل كان عليه الصلاة والسلام واعيا ذلك كله . عالما بأن النصر الذى حققه يوم بدر لابد وأن يكون له ثمنه ، والأكثر أن وراء هذا النصر لابد أن تشتد المعارك شراسة وضراوة . كان أعداء الإسلام من مشركين ويهود ومنافقين على النحو التالى . وأن يكون تحرك هذه القوى الثلاث متداخلا ، وأن تصطدم إحداها بالمسلمين . ثم إذا ما التفتوا إلى قوة أخرى ليلقونها عادت الأولى إلى الحركة أو تحركت الثالثة ... حتى لا يتوقف الصراع بين قاعدة الإسلام وأعدائها وإن يظل مستمرا حتى يكون اللقاء العنيف يوم أحد .

يعقب هذا الحشد السياسى على إمتداد عام حشد آخر عسكرى فها هى قريش تستعد لأضخم حملة عسكرية تستطيع أن تشنها على قاعدة الإسلام فى المدينة . ثلاثة آلاف مقاتل منهم سبعمائة راكب ودارع ، بينهم مائة من ثقيف (الطائف) ، ذخائر حربية كثيرة ، مائتا فارس وهى أخطر قوة ضاربة وقتئذ ، ثلاثة آلاف بعير . حتى النساء يسهمن فى هذه المعركة ضد المسلمين حيث تخرج نساء قريش وهن يحملن الدفوف ليشهدن القتال ويذكرن رجالهم من القرشيين بأخذ الثأر .

وبالطبع تصل أنباء هذه التحركات سياسية كانت أو عسكرية إلى الرسول ﷺ والمؤمنين . فيجمع أصحابه للمشورة ، وتكون الآراء موزعة بين الخروج لمواجهة العدو ، أو البقاء فى المدينة والتحصن بها . ومقاومة المهاجمين لها .

حتى يستقر الرأى بعد أن يجمعهم الرسول ﷺ ويقول لهم : « أيها الناس إنى رأيت فى منامى رؤيا . رأيت كأنى فى درع حصَينة ، ورأيت كأن سيفى ذا القفار انفصم عند ظبته (أى طرفه) ، ورأيت بقرا تذبح ، ورأيت كأنى مردفا كبشا » .

فقال الناس : فماذا أولتها يارسول الله .

قال رسول الله ﷺ : « أما الدرع الحصينة فالمدينة فأمكثوا فيها ، وأما إنفصام سيفى فقتل رجل من أهل بيتى ، وأما البقر المذبح فقتلى من أصحابى ، وأما إنى مردف كبشا فقتل قائد من الأعداء إن شاء الله » .

ويوضح الرسول ﷺ خطته قائلا : « امكثوا فى المدينة وأجعلوا النساء والذرارى ى الآطام (أى بيوت الحجارة) فإن دخل علينا العدو قاتلناه فى الأزقة فنحن اعلم بها منهم . ورموا من فوق الصياصى (أى الحصون) » .

ويتفق الصحابة من مهاجرين وأنصار على هذا الرأى . وها هو الحمزة رضى الله عنه يقول وقد كان صائما : « والذى نزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم حتى أجالدهم بسيفى خارجا من المدينة » .

لكن ماذا عن قوات الطرفين ؟ النظرة السريعة إلى الجمعين تقول أن المجاهدين المسلمين الفا ، بينما المشركين كانوا ثلاثة آلاف . وياليت عدد المجاهدين المسلمين يظل على حاله . لقد تخاذل منه ثلثمائة مجاهد حين عاد بهم حليف الشر أو اليهود « عبد الله بن سلول » . ولذلك تتقدم القوات

الإسلامية إلى ساحة المواجهة بثلثى كفاءتها . بينما قوات المشركين على حالها لم ينقص منهم مقاتل .

وتتوزع قوة المسلمين إلى ٦٥٠ مجاهدا يقابلون عدوا تعداده ثلاثة آلاف مقاتلا . والخمسين الباقين من قوة المسلمين فهم رماه أمرهم الرسول ﷺ أمرا قتاليا صريحا وواضحا . مؤداه أن يقفوا فى مكان معين . وقال عليه الصلاة والسلام لقائدهم عبد الله بن جبير : « إنضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتون من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فأثبت » .

أمر قتالى واضح فى جملته وتفصيله . خلاصته الزم مكانك ولا تبرحه سواء انتصر المسلمون أو انهزموا . إذن فعلى هؤلاء الخمسين من الرماة مسئولية كبرى هى صد هجوم مائتين من فرسان المشركين ، وخلفهم ٢٨٠٠ من المشاه وأن هؤلاء الفرسان كانوا تحت قيادة خالد بن الوليد (فلم يكن قد اسلم بعد) وعكرمة بن أبى جهل . وهذا وذاك يعدان من عباقرة الحرب وأكبر فرسان العرب وقتئذ .

ودارت رحى الحرب ، رصد رماة المسلمين الخمسين . هجمات فرسان المشركين بقيادة ابن الوليد وابن أبى جهل . ونجحت فى ذلك جولتين متتاليتين . بينما ظل مشاة المسلمين فى مكان مأمون ، وجوههم نحو العدو ، وظهورهم محمية بهؤلاء الرماة . مما جعل الاضطراب يدب فى صفوف المشركين . بينما تندفع أعداد المؤمنين وسط قوات قريش التى أذهلها القتال العنيد للمسلمين . وكأن ما حدث بالأمس يوم بدر يحدث اليوم فى أحد .

لكن تحدث المفاجأة ... – والحرب – كما نعرف مفاجآت – المفاجأة الإليمة . بعد أن تمتلىء أيدى المؤمنين بالمغانم والاسلاب . فتنهبط منها السيوف . فمستحيل ليد واحدة تمسك السيف للجهاد وهى فى الوقت نفسه تتطلع إلى ما تظفر من مغانم وأمتعة . وهنا تحدث النكسة لا محالة . بل تحدث الهزيمة حيث تتطلع عيون الرماة الذين قد أمرهم رسول الله ﷺ بألا يغادروا موقعهم مهما حدث . ها هم يتطلعون إلى ما يحمله إخوانهم من المؤمنين من مغانم واسلاب ومتاع للدنيا . فيفر اغلب الخمسين إلى حيث يحققون متاع الدنيا . ولايبقى حول عبد الله بن جبير إلا نفر قليل يؤثر الموت على الحياة . وفى هذه اللحظة يوجه العدو ضرباته القاضية فى صورة موجات من الهجوم بقيادة ابن الوليد . على أثرها تتخضب أرض المعركه بدماء المسلمين . ويصبح مركز القيادة المتمثل فى النبى الكريم ونفر قليل من صحابته مهمته الدفاع عن هذا المركز . مهددا . ويختل توازن القوة الإسلامية إلى درجة أن أفرادها صار يضرب بعضهم البعض . ولا يثبت حول الرسول من الرجال إلا أربعة عشر صحابى جليل يتولون حمايته بصدورهم . ولا يفكرون والإمر كذلك فى تصعيد الهجوم ضد العدو .

* * *

حول هذه القلة القليلة يبدأ التجمع بعد شتات . لكن هذه القلة كانت مستهدفة حيث تتابع زحفها إلى جبل أحد . ويزداد الهجوم عنفا وكثافة حيث كان مطلب المشركين هو قتل الرسول ﷺ . وها هو ابن

قميئة يحاول ذلك . فتتصدى له « أم عمارة نسيبه الحرزجية . لتلقى الطعنة عن رسول الله وترد على هذا المشرك بطعنة كبيرة ويحتاط الرسول . فيغير مظهره حيث يخلع لامته (أى خوزته) . ويأمر أصحابه بعدم التعليق عندما سرت أشاعة قتله فى المعركة . حتى تخف الهجمات ولا تشتد فالهجمات تستهدفه هو عليه أفضل الصلاة والسلام هذا من ناحية ، ولإختراق نطاق الكفار المضروب حولهم إلى مكان آمن من ناحية أخرى . ويتم ذلك . إلا أنه يستشهد من المسلمين مع قتلهم العشرات بينما يقتل من المشركين على كثرتهم ما لا يزيد عن العشرين قتيلا . بل ويستشهد من المؤمنين من يقدر بألف فارس وهو الحمزة بن عبد المطلب أسد الله ورسوله وتمثل بجثته أبشع تمثيل . ويتعلم المسلمون درسا جديدا يفيدهم فيما بعد □

اعتكافـــه

وعلى إمتداد العشرة أيام الأخيرة من رمضان فى كل عام كان النبى ﷺ يعتكف بمسجده الشريف فى المدينة . فلما كان العام الذى لحق فيه بالرفيق الأعلى . اعتكف عشرين يوما بدلا من عشرة أيام ، مستكثرا من الخير عن طريق الخلوة بربه . وكأنه يشير بذلك إلى أن على المسلم - كلما دنا به العمر إلى لقاء ربه - أن يشرع همته للاستكثار من الخير حتى تمتهد له بذلك الطريق الراضية إلى لقاء الله .

وانطلاقا من هذا الهدى النبوى الشريف ، فإن الاعتكاف فى رمضان أمر مشروع كما أجمع العلماء .

ويذكر الأمام ابن قيم الجوزيه فى كتابه « زاد المعاد » أن الرسول

ﷺ كان إذا اعتكف دخل قبته وحده ، وكان لا يدخل بيته فى حال إعتكافه إلا لحاجة الإنسان » .

ومن قبل قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر (أى العشرة الأخيرة من رمضان) شد مئزره ، وأحيا ليله وأيقظ أهله » وتقول رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يعتكف صلى الفجر ثم دخل معتكفه ، وأنه صلوات الله وسلامه عليه أراد مرة أن يعتكف فى العشر الأخيرة من رمضان فأمر ببنائه (أى إتخاذ مكان فى المسجد) فَضُرب ، فلما رأيت ذلك أمرت ببنائى فضرب ، وأمر غيرى من أزواج النبى ﷺ ببنائه فضرب . فلما صلى - النبى ﷺ - الفجر نظر إلى الابنية وقال ما هذا ؟ البُرَّ تردن ؟ (أى هل الطاعة تردن) فأمر ببنائه فقوِّض (أى أزيل) وأمر أزواجه بأبنيتهن فقوضت . ثم أخر الاعتكاف إلى العشر الأول (أى العشرة أيام الأولى من شوال) . وتَرْك الإعتكاف بعد نيته منهن دليل على قطع ، بعد الشرع فيه » وفى هذا الحديث اشارة إلى أن للزوج الحق فى أن يمنع زوجته من الاعتكاف إقتداء بهدى رسول الله ﷺ مع زوجاته .

كذلك توضح السيدة عائشة - رضى الله عنها سلوك المعتكف فتقول : « أن النبى ﷺ كان يمر بالمريض وهو معتكف ، فيمر كما هو ولا يعرِّج يسأل عنه » وما روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها من أن السنة على المعتكف أن لا يعود مريضا . فمعناه أن لا يخرج من معتكفه قاصدا عبادته ، وأنه لا يضيق عليه أن يمر به فيسأل غير معرِّج عليه . حيث

قالت رضى الله عنها بنص حديثها : « السنة على المعتكف إلا يعود مريضا ، ولا يشهد جنازة ، ولا يمس المرأة ولا يباشرها ، ولا يخرج لحاجة إلا لما بدا منه ، ولا اعتكاف إلا بصوم ، ولا إعتكاف إلا فى مسجد » .

والمعتكف يستعد للاعتكاف بالفراش والغطاء وبما يلزمه كما يقول ابن عمر رضى الله عنه : « أن النبى ﷺ ، كان إذا اعتكف طرح له فراشه أو يوضع له سريره » .

ويباح للمعتكف أمورا نلمسها من هديه عليه الصلاة والسلام . فقد قالت السيدة صفية بنت حيى زوجة رسول الله : « كان رسول الله ﷺ معتكفا ، فأتيته أزوره ليلا ، محدثة ثم قمت فقام معى – وكان مسكنها فى دار اسامة بن زيد – فمر رجلان من الأنصار . فلما رأيا النبى ﷺ أسرعا . فقال النبى ﷺ على رسلكما . أنها صفية بنت حُيىٌ ، قال الرجلان : سبحان الله يارسول الله . قال رسول الله : إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، فخشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا » .

كذلك يباح فى الاعتكاف . ترحيل الشعر وتمشيطه ، وحلق الرأس وتقليم الأظافر وارتداء أحسن الملابس والتطيب بالطيب كما قالت السيدة عائشة : كان رسول الله ﷺ يكون معتكفا فى المسجد فيناولنى رأسه من خلَل الحجرة ، فأرحلّه (أى أمشطه) » .

ومن هديه عليه الصلاة والسلام فى اعتكافه خلال شهر رمضان . التوجيه بأن الاعتكاف ليس أمساك عن الكلام ظنا من المسلم أن ذلك مما

يقرب إلى الله عز وجل . فقد روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : بينما النبى ﷺ يخطب ، إذا هو برجل قائم فسأل عنه . فقالوا : أبو اسرائيل يارسول الله . نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال رسول الله ﷺ مُرْهُ فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه » .

ولا شك أن الاعتكاف معوان للمسلم على تحصيل كمال صومه حين تمتهد له السبيل إلى القيام بشعيرة الاعتكاف على الوجه الذى قصده الشارع الحكيم والتزمه من بعد السلف الصالح من أزواجه وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين .

ولا يتحقق القيام بهذه الشعيرة الاعتكاف بغير تحقق شروطه وهى أن يكون مسلما مميزا طاهرا . فلا يصح لكافر أو لصبى أو لحائض أو نفساء أن يعتكف .

كذلك ينبغى أن تتم أركان الاعتكاف حتى يتحقق كشعيرة . وذلك بالمكث فى المسجد بنية التقرب إلى الله عز وجل . فلو لم يقع المكث فى المسجد أو لم تحدث نية الطاعة لا ينعقد الاعتكاف .

ومن الخطأ أن يظن أن الاعتكاف لم يكن معروفا قبل الإسلام . أو أنه شعيرة اسلامية محضة . لأن الاعتكاف كان معروفا قبل الإسلام عند كثير من الشعوب القديمة ، والعرب فى جاهليتهم كانوا يعرفون الاعتكاف ، وكان منهم من يعتكف أو يعتزل . حتى إن بعض أهل السير يطلقون كلمة الاعتكاف على اعتزال رسول الله ﷺ عن الناس وبقائه بغار حراء فى شهر رمضان من كل عام قبل أن يشرفه الله تعالى باصطفائه نبيا للعالمين .

ولقد جرى حديث بين النبى ﷺ وعمر بن الخطاب رضى الله عنه يشير إلى ذلك حيث يقول عمر بن الخطاب : « يارسول الله كنت قد نذرت فى الجاهلية أن أعتكف فى المسجد ليلة حول الكعبة . فقال له النبى ﷺ : « أوف بنذرك ياعمر » .

وهذا النوع من الاعتكاف يدخل فى باب الاعتكاف الواجب أى الذى يوجبه المرء على نفسه كأن يقول لله علىَّ أن أعتكف أو الإعتكاف المعلق كقول المرء : إن شفا الله مريضى لاعتكفن كذا ... وهذا بالطبع غير الاعتكاف المسنون . الذى سنه النبى ﷺ فى العشر الاخيرة من رمضان كما تقدم .

* * *

ولقد أتى على الإنسانية حين من الدهر كان الناس فيه يؤثرون العزلة وتجنب المجتمعات إنقطاعا إلى ربهم ، وإيثارا لسلامة دنياهم . ولقد تأثر بذلك بعض الصحابة رضوان الله عليهم فحاولوا أن يسلكوا الطريق اليه ، كما يدل على ذلك كثير من الروايات والأحاديث النبوية . فهذا هو أبو إمامة رضوان الله عليه قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سرية من السرايا فمر رجل منا بغار حوله بقل وماء . فحدثته نفسه أن يقيم معتكفا فى هذا الغار . يقتات مما حوله من نبات ويصيب ما يحتاج اليه من ماء وبذلك يتخلى عن الدنيا ويخلص من آفاتها فمضى إلى رسول الله ﷺ يقول له : يانبى الله . لقد مررت بغار فيه ما يمسك على حياتى ، من بقل وماء . فحدثتنى نفسى أن أقيم فيه وأتخلى عن الدنيا فقال النبى ﷺ : لقد بعثنى ربى بالحنيفية السمحة لا أصر فيها ولا حرج . والذى نفسى بيده

لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها . ولقيام أحدكم فى الصف مجاهدا فى سبيل الله خير من صلاته ستين سنة » وهنا أشارة من النبى ﷺ إلى يسر ديننا السمح .

والقرآن فى هذا الشأن أصل لكل مَنْ يلوذ اليه ليقف عند حدوده ففى قوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة إبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ﴾ ما يؤكد على أن هذا الدين يسرا لا يكلفنا أكثر مما نطيق .

بل إن رسول الله ﷺ وضح يسر هذا الدين حيث روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه كان معتكفا فى مسجد رسول الله ﷺ . فأتاه فسلم عليه ثم جلس . فقال له إبن عباس : يافلان أراك مكتئبا حزينا ، قال الرجل : نعم ياابن عم رسول الله . لفلان علىَّ حق ولاء . وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه ، قال إبن عباس : أفلا أكلمه فيك ؟ فقال إن أحببت . فأنتعل إبن عباس ، ثم خرج من المسجد قال الرجل : أنسيت ما كنت فيه ؟ (أى اعتكافه) قال إبن عباس : لا ولكنى سمعت صاحب هذا القبر - ﷺ - والعهد به قريب يقول : من مشى فى حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرا من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يوما إبتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق ... » .

ومن هنا يتضح أن الاعتكاف سنة لمن استطاع عليه تقربا لله عز وجل وإقتداء برسوله ﷺ ، وهو مستحب فى رمضان ففيه صيام النهار وقيام الليل □

مواجهة اليهود
فى الخندق

ثم يأتى رمضان العام الخامس للهجرة وهو فى التاريخ الإسلامى عام الزلزلة لقوله تعالى : ﴿ هنا لك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ إشارة إلى ما أصاب المسلمين من بلاء فى معاركهم مع المشركين ويهود المدينة والمنافقين على إمتداد القبائل العربية . فمع رمضان من هذا العام الخامس أيضا كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق . لمواجهة اليهود فى شبه الجزيرة العربية ، وليس مع يهود المدينة وحدها . فقد ضاق النبى ﷺ والمؤمنين من دسهم ومكرهم . وكانت مواجتهم فى غزوة الخندق التى إن كانت قد وقعت فى [illegible] شوال إلا أن الاستعدادات لها كانت خلال رمضان .

والحق أن الاستعداد لهذه الغزوة كانت أهم من المعركة نفسها . فإقامة هذا الخندق كان ولا شك من أساليب الحرب التى لم تتعودها الجزيرة العربية فى ذلك الوقت ويكفى أن نعرف أن صاحب فكرته هو سلمان الفارسى وبهذه الفكرة الصائبة فى الحرب رفع رسول الله ﷺ قدر سلمان الفارسى ، ومنحه أرفع وسام يمكن أن يحصل عليه إنسان فى عصر النبوة حيث قال ﷺ تقديرا لسلمان : « سلمان منا آل البيت » وقال وهو يعنى سلمان الفارسى : « لو كان العلم فى السماء لناله رجل من فارس » وهكذا فإن أقدار الرجال مرهونة دائما بأعمالهم واخلاص نياتهم . وقد كان هذا الفارس مستحقا لإخلاصه .

لقد كان من حديث الخندق أن نقرأ فى السيرة لإبن هشام . أن اليهود حزبوا الأحزاب ضد رسول الله ﷺ ورجاله . فخرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فقالوا لهم « إنَّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله » وأستغلت قريش ذلك لتسأل اليهود حتى تعرف نواياهم قائلين : « يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول (اشارة إلى التوراة) والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد . أفديننا خير أم دينه ؟ .

قال اليهود – وهم يرون رأى العين الأصنام التى كانت حول الكعبة ، ويعلمون أن جوف أول بيت وضع للناس قد كدست فيه تماثيل آلهة كل شعوب الأرض حتى صار مخزنا للشرك بعد أن كان منارة للتوحيد – : « بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه » .

ياللسخرية ! أصحاب الكتاب الأول وحملة رسالة التوحيد يزعمون

اليوم أن الوثنية خير من دعوة تدعو إلى عبادة الله الواحد الذى لا شريك له ! إنها ضلالة من اليهود يستحقون من أجلها تلك اللعنة التى لعنهم بها الله منْ فوق سبع سموات حين قال تعالى : ﴿ الم تر إلى الذين أوتو نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومَنْ يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ .

وبالطبع تسر قريش لما تسمع ، وتنشط لما تدعوهم اليه اليهود من حرب النبى ﷺ .

وقالوا ذلك أيضا لقبائل غطفان وفزارة وبنى مر وغيرها ، واجتمعوا على أمر واحد هو حرب النبى ﷺ واستئصال دعوته من شبه الجزيرة العربية .

وهكذا أقبلت قريش فى عشرة آلاف مقاتل بقيادة أبو سفيان بن حرب وتبعتها بقية القبائل ، وخرج النبى ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين وتمركزوا وراء الخندق على طول المدينة . فكان هذا الخندق فاصلا بينهم وبين الاعداء من المشركين واليهود . إلا أن العدو كان من الكثرة والتركيز . حتى استبد الخوف ببعض الضعفاء من المسلمين حتى قال أحدهم : « كأن محمدا يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط » .

ويشتد البلاء على الناس . فهم ستة محاصرين وراء الخندق وأمامهم

المشركين يشددون بكثرتهم الحصار . حتى تفشل خطة الخندق . فتكون عونا لهم وليس ضدهم وهنا يبعث النبى ﷺ إلى قائد غطفان عارضا عليه أن يعطيه بثلث ثمار المدينة على أن يمر بمن عنه وعن أصحابه فجرى بينه عليه الصلاة والسلام صلحا .

وظل الحال على ما هو عليه . حتى يتسلل بعض المشركين من ثغرة فى الخندق ليلتقوا بالمسلمين وجها لوجه . وكان على رأس المسلمين على بن أبى طالب . الذى قضى ورجاله على هؤلاء المتسللين . حتى يحدث ما لم يكن فى الحسبان حيث يأتى نعيم بن مسعود بن عامر أحد المتحزبين على النبى الذى راح يفكر فى ذلك الدين الذى يجعل أهله مستبشرين حتى بلقاء الموت . ذلك الدين الذى يجعل الفتيان والشيوخ يحفرون خندقا كهذا والظمأ يبلغ منهم مبلغا ، والعرق يتفصد منهم فى قيظ رمضان ... وانتهى تفكيره إلى أمر . هو أن يأتى إلى رسول الله ﷺ ويقول له : « يارسول الله إنى قد اسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمرنى بما شئت » قال رسول الله ﷺ : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إذ استطعت ، فإن الحرب خدعة » فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة وقال لهم : « يابنى قريظة قد عرفتم ودى اياكم وخاصة مابينى وبينكم » قالوا له : « صدقت لست عندنا بمتهم » قال نعيم : « إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ولا تعذرون على أن تحولوا منه إلى غيره . وإن قريشا وغطفان جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم ، فإن رأوا

نهزه (أى فرصة) أصابوها . وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم . فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونوا بأيديكم ثقة لكم . على أن تقاتلوا محمدا حتى تناجزوه » فقالوا : لَقِدِ أشرت .

وخرج إلى قريش وقال لهم تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد ارسلوا اليه . إنَّا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على مَنْ بقى منهم حتى نستأصلهم ، فإن بعثت اليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا » .

ثم خرج نعيم إلى غطفان وقال : « يامعشر غطفان إنكم أصلى وعشيرتى ، وأحب الناس إلىَّ ، ولا إراكم تتهمونى » قالوا : صدقت ، فقال لهم مثال ما قاله لبنى قريظة وقريش .

فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان رسلا من غطفان وقريش إلى بنى قريظة لحثهم على القتال . فقال اليهود إن اليوم يوم سبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدا . حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نحارب محمدا .

فلما رجعت الرسل بما قالت بنى قريظة قالت قريش وغطفان : تأكدوا مما قاله نعيم ، وأرسلوا إلى بنى قريظة برفض مطلبهم . وهنا أيضا

تأكدت بنى قريظة من صدق ما قاله نعيم . وهكذا أنطلت وخالت الخدعة على الثلاثة أطراف بنى قريظة وقريش وغطفان . فدنت الفرقة بينهم كمتحالفين ووقع الخزلان .

ولما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما أختلف عليه أمرهم ؛ وما فرق الله من جماعتهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه مستطلعا ما يفعله المشركون ليلا .

وعاد ليقول لرسول الله ﷺ : « دخلتَ فى القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، حتى قام أبو سفيان فقال يامعشر قريش أنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنى قريظة . وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون . فأرتحلوا فإنى مرتحل » .

ولما أصبح رسول الله ﷺ ... انصرف عن الخندق ، راجعا إلى المدينة بعد أن تأكد من انسحاب المشركين منهزمين أمام هذا الخندق .

* * *

ومع الظهر أتى جبريل عليه السلام النبى الكريم وقال له : أو قد وضعت السلاح يارسول الله ؟ قال النبى ﷺ : نعم . فقال جبريل عليه السلام : « فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، ومارجعت الآن إلا من طلب القوم إن الله عز وجل يأمرك يامحمد بالمسير إلى بنى قريظة فإنى عامد اليهم فمزلزل بهم » لقد نقض بنو قريظة العهد والأكثر أرادوا قتل رسول الله ﷺ .

* * *

وهنا أمر رسول الله ﷺ بلال فأذن فى الناس . قائلا : « مَنْ كان سامعا مطيعا ، فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة » .

وتقدم إلى بنى قريظة على بن أبى طالب رضى الله عنه حاملا الراية . حتى إذا دنا من حصونهم سمع ما جعله يخشى على تقدم الرسول فهم قوم ماكرين خبثاء . فرجع إلى رسول الله ﷺ . حتى إقترب منه وقال : « يارسول الله . لا عليك . ألا تدنو من الأخابث » قال هذا لكى يمنع النبى من التقدم . إلا أن النبى ﷺ تقدم حتى دنا من حصونهم وقال : « يااخوان القردة . هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته » فقال كبيرهم موجها كلامه إلى النبى : يا أبا القاسم ما كنت جهولاً » .

ومر النبى ﷺ على نفر من أصحابه . أخبروه عن إتجاه رجل ركب بغلة بيضاء ، عليها رحاله ، وعليها قطيفة ديباج . إلى بنى قريظة . فقال النبى ﷺ « ذلك جبريل ، بعث إلى بنى قريظة يزلزل حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم » .

وأقتحم النبى ورجاله حصون بنى قريظة . بعد اشتباكات خاطفة ، وتلاحق به المسلمين وظلوا محاصرين لهذه الحصون خمسا وعشرين ليلة . حتى أجهد بنى قريظة الحصار ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب . وهنا إقترح عليهم أحد زعمائهم ثلاثة إقتراحات ليختاروا واحدا منها حتى يفك المسلمون الحصار .

كان الإقتراح الأول : أن يؤمنوا به . فقالوا لا نفارق حكم التوراة . والثانى : أن نقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه مصلتين

السيوف حتى يحكم الله بيننا وبينهم فإن هلكنا نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بدونهم والاقتراح الثالث : إن ابيتم هذه وتلك . فإن الليلة ليلة السبت وأنه عسى أن يكون محمدا وأصحابه غافلين . قالوا : نفسد سبتنا علينا ، وتحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا » .

وهنا رد كبيرهم : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما .

وهكذا انتهى أمر بنى قريظة ووزعت أموالهم ونساءهم وأبناءهم على المسلمين □

سفراؤه إلى
الأباطرة
والملوك

وجاء رمضان العام السادس للهجرة ... وهو فى التاريخ الإسلامى يعرف بعام الاستئناس اشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ... لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ . وكان النبى ﷺ مقيما بالمدينة . يعد العدة للخروج فى ذى القعدة معتمرا . يجنح للمسلم ، ولا يريد الحرب . ومع هذا الشهر المعظم من هذه السنة ... بدأ النبى ﷺ ... التفكير فى ارسال رسله أو مبعوثيه أو بلغة الدبلوماسية الحديثة سفرائه إلى أباطرة وملوك أمم وشعوب العالم القديم ... يدعوهم إلى إتباع

الدين الإسلامى توكيدا لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ فما كانت رسالة النبى ﷺ إلا رحمة للعالمين ، وما كانت أيضا إلا للناس كافة ولهذا وجبت النظرة إلى هذا العالم القديم والقوى السياسية التى كانت تحكمه فى عصر النبوة .

ولا تخلو كتب السيرة القديمة والحديثة عن الإشارة إلى هذه الجوانب ، مسجلة مكاتبات النبى ﷺ إلى ملوك وأباطرة وقادة وزعماء العالم القديم ، وأسماء من قام بتوصيل هذه المكاتبات ممن إختارهم النبى ﷺ لهذه المهمة الجديدة على شبه الجزيرة العربية . فقد كان كل ما يعرفه العرب وقتئذ هو اسلوب العهود والعقود فيما بين القبائل . أما المكاتبات إلى قادة أمم وشعوب العالم القديم ، أو الخطابات التشريعية إلى الأمم والشعوب نفسها فهى اساليب استحدثت بعد الإسلام وفى عصر النبوة على وجه التحديد .

وفى هذا العالم القديم نلحظ قوتين عظيمتين . شأنه كالعالم المعاصر . وإن إختلفت الاسماء والمسميات والسياسيات كانت الروم هى إحدى هاتين القوتين وكانت الفرس هى القوة الثانية وأما بقية أمم وشعوب العالم القديم فقد كانت تدور فى فلك هاتين القوتين العظيمتين قربا أو بعداً من نفوذهما . وكان هرقل وكسرى على رأس هاتين القوتين العظيمتين . وكانت الحرب سجالا بينهما ، وكانت الفرس صاحبة الغلب فى بادىء الأمر حيث استولت على فلسطين ومصر . ووضعت يدها على بيت المقدس ونقلت منه الصليب . إلا أن ذلك لم يدم طويلا . فقد عادت

اعلام الرومان تخفق مرة أخرى على مصر وسورية وفلسطين . واسترد هرقل الصليب بعد أن نذر لذلك نذرا ... أن يحج إلى بيت المقدس ماشيا . حتى يرد الصليب إلى مكانه .

ومن اليسير والأمر كذلك فى العالم القديم أن نقدر مكانة هاتين القوتين العظميين وما يبعثه اسمهما - كما يقول الدكتور هيكل - « من الرهبة إلى النفوس ، ومن الهيبة إلى القلوب . حتى لا تفكر دولة فى التعرض لهما . ولا يدور بخلد أحد أن يفكر فى غير خطبة ودهما » .

فإذا كان ذلك هو شأن أمم وشعوب العالم القديم . فلابد أن يكون أيضا هو شأن بلاد العرب . وعلى هذا كانت اليمن والعراق تحت نفوذ فارس ، وكانت مصر والشام تحت نفوذ الرومان . وكانت شبه الجزيرة العربية محصورة فى دائرة نفوذ هاتين القوتين العظيمتين . وكانت إقتصاديات شبه الجزيرة العربية إن لم تكن حياة سكانها معتمدة - كما رأينا - على التجارة مع الشام التابعة هى ومصر للروم . أو مع اليمن التابعة هى والعراق للفرس . ولذلك كان على جبابرة قريش وغيرها من القبائل العربية مصانعة هاتين القوتين العظيمتين . حتى لا تفسدان بقوة نفوذهما وسلطانهما تجارة هذه القبائل فى الشام أو اليمن ... ولذلك كانت هناك استحالة فى إختيار بديلا للمصانعة على أى أمة تدور فى فلك هاتين القوتين العظميين . وبالتالى كان من الصعب أن يفكر النبى ﷺ حتى ولو دانت له قبائل شبه الجزيرة العربية من أقصاها إلى أدناها ... مجرد التفكير فى الخروج على هذه القاعدة الموروثة وهى مصانعة هاتين القوتين العظميين . فما بالنا وقد

تجاوز – عليه أفضل الصلاة والسلام – ذلك إلى إرسال مبعوثيه أو سفرائه إليهما ، وإلى غيرهما من الأمم التى كان لها شأن فى العالم القديم كالحبشة . يدعوهم جميعا إلى دين الله ، وترك ما يدينون من ديانات سماوية أو غير سماوية ! إن ذلك يترتب عليه الكثير من النتائج لعل المباشر منها هو ضرب إقتصاديات العالم العربى الممثلة فى تجارتهم ، إن لم يكن جر العرب إلى المواجهة المباشرة لإحدى هاتين القوتين العظميين أو الأثنتين معا . مواجهة نتائجها معروفة مقدما وهى الخضوع الكامل لهاتين القوتين وليس مجرد الوجود فى دائرة نفوذهما .

هذه الحقائق – عن العالم القديم – كان النبى ﷺ يدركها تمام الإدراك . فقد كانت ماثلة أمامه ... ولكنه عليه الصلاة والسلام رغم هذه المخاطر التى ربما تنجم عن تنفيذ هذه الفكرة لم يتردد . بل خرج على أصحابه رضوان الله عليهم وقال : « أيها الناس إن الله قد بعثنى رحمة للناس كافة ، فلا تختلفوا كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم » قال أصحابه : « وكيف اختلف الحواريون يارسول الله ؟ » قال عليه الصلاة والسلام : « دعاهم إلى الذى دعوتكم اليه . فأما مَنْ بعثه مبعثا قريبا فرضى وسلم ، وأما مَنْ بعثه مبعثا بعيدا فكره وجهه وتثاقل » ثم ذكر عليه الصلاة والسلام « أنه مرسل رسل إلى هرقل بيزنطة ، وكسرى فارس ، والمقوقس فى مصر ، والحارث الغسانى ملك الحيرة ، والحارث الحميرى ملك اليمن ، وإلى نجاشى الحبشة ... يدعوهم إلى الإسلام » ووافقه الصحابه رضى الله عنهم .

عندئذ صنع النبى ﷺ له خاتما من فضة ، نقش عليه « محمد

رسول الله » وكتب رسالة إلى هرقل حملها اليه دحية بن خليفة الكلبى نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على مَنْ أتبع الهدى ... أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . إسلم تسلم ... يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين . ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا . ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنّا مسلمون ﴾ .

تأمل هذه الرسالة القليلة فى كلماتها . الكثيرة فى معانيها . وقبل كل شيء تذكر أن هرقل هذا أحد اثنين يمثلان القوتين الأعظم . أنه يبدأ بإسم الله ، ثم يقدم اسمه على اسم هرقل الامبراطور العظيم ، ثم لا ينعته بأمبراطور أو ملك . فالملك هو الله وحدة وإنما يكتفى عليه أفضل الصلاة والسلام بأن يقرن اسمه بالعظمة فى موطنه ، ثم لا يوجه اليه السلام وإنما يوجه هذا السلام إلى مَنْ اتبع الهدى بصورة عامة ، ثم يطلب منه الدخول فى دين الإسلام وإلا فلن تكون له أو لأمته السلامة ولن يكون نصيبه بأكثر من نصيب الاريسيين من الإثم . بعد ذلك دعوته دعوة صريحة إلى الإسلام.. فى أسلوب مباشر لا مواربة فيه .

ولقد رد هرقل على رسول الله ﷺ ردا دبلوماسيا نصه : « إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى . من قيصر ملك الروم . إنه جاءنى فى كتابك مع رسولك . وإنى أشهد أنك رسول الله . نجدك عندنا بشرنا بك عيسى بن مريم ، وإنى دعوت الروم أن يؤمنوا بك فأبو . ولو أطاعونى لكان خير لهم . ولوددت أنى عندك فأخدمك وأغسل قدميك » .

وتأمل رد هرقل وكيف قدّم اسم الرسول ﷺ على اسمه ، وكيف أشار إلى بشارة عيسى عليه السلام بإسمه ، وكيف يشهد ويقر ويعترف برسالته التى بشر بها عيسى عليه السلام . وكيف بادر بعرض كتاب لرسول ﷺ إلى قومه من الروم فلم يوافقوا ، وكيف تظاهر بأنه لا يستطيع إجبارهم على الدخول فى الإسلام ، وكيف أنهم لو أطاعوه لكان خيرا لهم ولكنهم لم يفعلوا . وانهى رسالته بما يشير إلى تواضعه .

* * *

ثم كانت الرسالة الثانية إلى كسرى امبراطور فارس وحملها عبد الله ابن حذافة السهمى ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله . إلى كسرى عظيم فارس . سلام على مَنْ إتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأن محمدا عبده ورسوله إلى الناس كافة . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . فاسلم تسلم . فإن أبيت فعليك آثام المجوس » .

وقرأ كسرى الرسالة . وتصورها استفزازا له فغضب وكان رده هو تمزيق الرسالة أمام حاملها الذى عاد إلى رسول الله ﷺ وبلّغه ما حدث فدعا النبى الكريم أن يمزق الله ملكه كل ممزق .

* * *

وكانت الرسالة الثالثة إلى النجاشي ملك الحبشة وحملها اليه عمر ابن أمية الضمرى ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله . وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . لم يتخذ

صاحبا ولا ولدا . وأن محمدا عبده ورسوله . ادعوك بدعاية الله . فإنى أنا رسوله . فاسلم تسلم ، فإن رأيت فعليك إثم النصارى من قومك » .

وكان رد النجاشى مهذبا رقيقا . وقد قيل أن النجاشى قد اسلم وأن النبى ﷺ قد أقام صلاة الجنازة للغائب عندما علم بوفاته .

* * *

والرسالة الرابعة كانت للمقوقس عظيم مصر وحملها إليه حاطب بن أبى بلتعه ، وقد وجدت عند أهل مصر فى جلد محمر اللون ولكن لم يثبت سنده . إلا أن الثابت أن المقوقس رد ردا جميلا . ومعه هدية عبارة عن جاريتين إحداهما « مارية القبطية » التى تزوجها النبى ﷺ ، والأخرى « سيرين » التى تزوجها حسان بن ثابت وبغلة بيضاء وحمار ومقدار من المال وبعض من خيرات مصر .

* * *

وكانت الرسالة الخامسة للحارث الغسانى ملك الحيرة . حملها اليه « شجاع بن وهب الاسدى » وبدلا من أن يرد على الرسول ﷺ . يرسل إلى هرقل – وقد كانت الحيرة تحت نفوذه – يستأذنه فى أن يقوم على رأس جيش لمعاقبة صاحب هذه الرساله وهو النبى ﷺ . ولكن هرقل كان أبعد نظرا من هذا المتملق المستذل . الذى كان يتمنى أن يلعب دورا شبيه فى عالمنا المعاصر بدور الشرطى فى المنطقة . لقد رأى هرقل أن يكون هذا المتملق المستذل فى شرف استقباله – أى هرقل – عند زيارته لبيت المقدس عندما يرد الصليب الذى كانت استولت عليه فارس واستردته الروم بقوة

السلاح على أن يتحرك بجيش به يعاقب أو يؤدب وكأن هرقل كان يشعر أن دور هذا المتملق المستذل هو دور « تشريفاتى » أكثر منه دور رجل الحرب الذى يستطيع أن يواجه النبى ﷺ ورجاله أولئك المسلحين بالعقيدة الصالحة والايمان الراسخ . ذلك أن هرقل كان هو وحده الذى تدرك معنى قوة هذا الدين ونبيه الكريم وكثيرا ما كان يتابع مواجهاته مع أعداء الاسلام ، وكان يستدعى من يلمس فيه قدرة على تحليل شخصيته كما سنرى بعد قليل قبل المواجهة العسكرية فى تبوك .

* * *

والرسالة السادسة كانت للحارث الحميرى ملك اليمن وحملها له المهاجر « ابن أمية المخزومى » ورد ردا رقيقا معلنا اسلامه ، ويطلب أن يقبل الرسول ﷺ أن يعينه عاملا له على اليمن حتى يتخلص من نفوذ فارس الذى يكرهه ويمقته ويدخل هو وبلاده اليمن فى حظيرة ذلك الدين الذى كثيرا ما سمع عنه فى شبه الجزيرة العربية . وشبيه بهذا ما جاء من أمير البحرين ، وأما أمير عمان فقد رد هو الآخر ردا فاحشا . ورد أمير اليمامة مظهرا استعداده للدخول فى حظيرة الاسلام بشرط أن ينصب حاكما فلعنه النبى لمطامعه الدنيوية .. .

وغيرها من الرسائل إلى الأمم والممالك والأمارات التى لم يمض عليها أكثر من ثلاثين سنة بعد وفاة الرسول إلا وكانت كلها تابعة للدولة الإسلامية ، وأن تنتقل العاصمة من المدينة إلى دمشق التى كانت ضمن دولة ذلك الحارث الذى كان يريد أن يعاقب ويؤدب وانتقلت إلى بغداد وإلى القاهرة وهكذا امتد الإسلام بحضارته وقيمه ذلك الامتداد الذى يعلن عن قيمته الحضارية ☐

كلمتــــه الخالدة يــــوم الفتــــح

وكانت كلمته الخالدة عليه الصلاة والسلام يوم الفتح العظيم « يامعشر قريش ماذا تقولون ، وماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : « نقول خيرا ونظن خيرا أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت » وهنا قال المصطفى عليه الصلاة والسلام : « أقول كما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم . يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . إذهبوا فأنتم الطلقاء » .

كلمة عظيمة خالدة لأن قائلها عظيم وخالد . خاطبه ربه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

فهل هناك أعظم وأكرم من سلوك العفو عند المقدرة ؟؟ ما أعظم هذه النفس حين تعفو ، وما أكرمها حين تسمو ، وما أرفعها حين تعلو على الصغائر والأحقاد !

هكذا مازلت تعلمنا يارسول الله ... حتى بعد أربعة عشر قرنا من الزمان جاءت دول ، ودالت أمم . وقامت مذاهب وهدمت غفائد ، ولمعت أفكار وأطفئت آراء . وبقيت مواقفك باهرة صامدة قوية ضد كل ما فى الحياة من ضعف وعجز ... وضمن هذه المواقف موقفك من هؤلاء الذين آذوك وقاتلوك وأخرجوك من ديارك ... ويبقى للزمان : عفوت عندما قدرت ... وطلبت من ربك لهم المغفرة فهو أرحم الراحمين .

لقد كانت هذه الكلمة الخالدة فى العشرين من رمضان فى العام الثامن للهجرة وهو فى التاريخ الإسلامى عام الفتح ... اشارة إلى فتح مكة معقل الكفر والشرك وقتئذ . لكن ما قصة هذا اليوم العظيم ؟ .

القصة تبدأ من يوم عودة الجيش الإسلامى من « مؤنة » بعد معركة بين المسلمين والروم . عادوا وقد كان لواوءهم لخالد بن الوليد لا هم بالمنتصرين ولا بالمنكسرين ، وإنما راضين من غنائم الحرب بالإياب وجسدت هذه العودة معان مختلفة عند كل طرف من أطراف المعركة ... عند الروم والمسلمين وبالطبع قريش التى كانت ترصد وتتنمر كل حركة للمسلمين .

هى عند الروم تعنى الفرحة والارتياح بإنسحاب المسلمين خصوصا وأن الحرب مع المسلمين على قلتهم بالقياس إلى كثرة اعداد أفراد الروم . التى قيل أن عدد أفرادها مائة ألف فى رواية أو مائتى الف فى رواية أخرى . وحمدوا ربهم على عدم استمرار هذه الحرب التى أضرت باقتصادياتهم من ناحية . وفتحت قلوب المشاركين فيها من الروم للإسلام . هذا الدين الذى يجعل أفراده ثابتين فى مواقعهم بصورة تدعو إلى الدهشة والإعجاب حتى أن الكثيرين من زعماء الروم دخلوا الإسلام الذى يصنع رجالا على هذا النحو من ناحية أخرى . يضاف إلى كل ذلك إضطراب الأحوال الإقتصادية فى الدولة بسبب الانهيار الاقتصادى الناجم عن الحرب . إلى درجة عجز الدولة عن صرف مرتبات أفراد جيش الروم الرابض أمام جيش المسلمين من ناحية ثالثة . لهذه الأسباب وغيرها كان وقف القتال بين الطرفين فيه إرتياح للروم .

* * *

وهى عند المسلمين تعنى الخسارة والاحباط . خسارة لاستشهاد ثلاثة من خيرة رجالهم وهم زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة . ثم إحباط عند المسلمين المستقبلين للعائدين من المعركة إلى درجة أنهم صاحوا فى وجه هؤلاء العائدين وعلى رأسهم خالد بن الوليد رضى الله عنه عند عودتهم : « يافرار ... فررتم فى سبيل الله » وبلغ خجل هؤلاء العائدين أنهم لزموا بيوتهم لا يبرحونها خوفا من صبية وصغار المسلمين .

وهى عند قريش تعنى الهزيمة التى قضت على المسلمين . وبدأوا

يفكرون تفكيرا جديدا فيما قطعوه على أنفسهم من عهود حيال المسلمين كان آخرها عهد الحديبية . فلماذا يبقون على عهد حيال المنهزمين ؟ لتعد إذن الأمور إلى ما كانت عليه قبل عمرة القضاء وقبل عهد الحديبية الذى ينبغى أن ينقض فورا وقد فعلوا . حيث بدأ ساداتهم يحرضون بنو بكر على خزاعة للاعتداء عليها ... إن ما حدث فى مؤنة يجعل قريش تعيد حساباتها من جديد . للقيام بجولة جديدة مع المسلمين .

وهرعت خزاعة شاكية إلى النبى ﷺ من إعتداء بنى بكر التى حرضتهم عليها قريش . ورأى النبى ﷺ أن الرد المناسب لنقض عهده ... هو فتح مكة .

عندئذ أدرك حكماء مكة كيف تورطوا فيما صنعوا ؟ فهذا عهد الحديبية قد نقض ، وهذا سلطان الدين الإسلامى يزداد بأسا وليس ضعفا على ما كان يظن البعض عقب مؤنة . ولئن فكر المسلمون فى الانتقام لخزاعة لتعرضت مصالح قريش وتجارتها للخطر . إذن لا سبيل إلا لمقابلة النبى ﷺ ، لتسوية بعض الأمور ، وفى مقدمتها التفاوض حول مد فترة عهد الحديبية إلى عشر سنوات .

وتوجه حكيمهم أبو سفيان بن حرب إلى المدينة للقاء النبى ﷺ ، وجعل وجهته بيت أبنته أم حبيبة زوجة رسول الله ﷺ . التى كانت قد عرفت عواطف النبى ﷺ إزاء قريش وإن لم تكن تعلم ما يعتزمه النبى فى أمر فتح مكة . ولعل ذلك كان شأن بقية المسلمين فى المدينة . ودخل بيت إبنته أم حبيبة . وعندما هم أن يجلس على فراش النبى ﷺ طوته .

فلما سألها أبوها : أطوته رغبة بأبيها عن الفراش أم رغبة بالفراش عن أبيها ؟ كان جوابها : هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس عليه . فقال أبو سفيان : « والله لقد أصابك يابنية شر » وخرج غاضبا . ثم كلم النبى ﷺ عن العهد واطالته ، فلم يرد عليه شيء ، وكلم أبو بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم أن يستشفعوا له عند رسول الله فلم يردوا عليه . فلم يجد مفرا من العودة إلى مكة بعد أن لاقى هوانا ما بعده هوان وليبحث مع زعماء قريش ما حدث من محمد وأصحابه .

فى الوقت نفسه رأى النبى ﷺ أن لا يترك لهم الفرصة حتى يعدوا أنفسهم للقائه . أن يجهز المسلمين لملاقاتهم فجأة . فلا يجد المشركون فرصة للدفاع عن أنفسهم فيستسلموا دون اراقة دماء جديدة ولذلك أمر سرا بالاستعداد الكامل لفتح مكة . منبها إياهم بكتمان ذلك جيدا .

ولعل النبى ﷺ كان يتوقع أن فى النفوس البشرية جوانب ضعف ، فقد صدق توقعه حيث كتب أحدهم كتابا أعطاه لامرأة تقوم بتسليمه إلى قريش . حتى تقف على استعدادات المسلمين للفتح . وهو ما اكتشفه النبى ﷺ . حيث بعث فى إثر هذه المرأة اثنين من أخلص صحابته أولهما على بن أبى طالب وزوج إبنته فاطمه الزهراء رضى الله عنهما . والثانى هو الزبير بن العوام زوج ذات النطاقين اسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهم جميعا . فلحقا بها ، وضغطا عليها حتى أخرجت الكتاب من جدائل شعرها ، وأحبطت المؤامرة فى مهدها .

وعندما إطمأن النبى ﷺ على إعداد قواته التى بها يستطيع فتح مكة . أمر بتحرك المسلمين إلى مكة فى إعداد لم تتوقعها قريش . ولعل ضخامة قوة المسلمين فى هذه المرة جعلت القبائل تنضم اليهم إما رغبة فى هذا الدين الذى استطاع أن يحشد كل هذه القوى أو رهبة منه. حيث يتم الإنتصار وبعده يكون الحساب لمن كانت مواقفه شامتة متخاذلة .

* * *

كانت قوة المسلمين كبيرة إلى درجة أن الصحراء اكتست بالبشر . وبلغ قريش أنباء هذا الزحف . فخرج لملاقاة النبى نفر من بنى هاشم فى مقدمتهم عمه العباس ، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وابن عمته عبد الله بن المغيرة ، والأخيران « أبو سفيان ، وابن المغيرة » طلبا أن يأذن النبى لهما بملاقاته فلم يأذن فأعلنا اسلامهما . وأما عمه العباس الذى كان قد أعلن اسلامه من قبل وإنما ظل فى مكة عينا على المشركين للمؤمنين . فقد أذن له بملاقاة ابن أخيه النبى ﷺ .

والحق أن عمه العباس قد راعه ما شهد من قوة جيش ابن أخيه ... فقام بدور الوسيط بينه عليه الصلاة والسلام وبين قريش — حتى لا تراق الدماء من جديد .

وسنحت للعباس الفرصة . حيث كان زعيم قريش أبو سفيان بن حرب بن أمية ... خارجا على مشارف مكة بالليل ... مع إثنين لاستطلاع قوة المسلمين . وقد عرفه فى الظلام العباس ... من صوته ... فناداه وأتفقا على أن يتوجها إلى الرسول ﷺ بمفرده وأن يعود من كان معه إلى مكة .

وتوجه العباس فى صحبة أبو سفيان بن حرب .. إلى حيث النبى ﷺ ... مخترقا صفوف جيش المسلمين . حتى كان الصباح .. كان أبو سفيان بن حرب فى حضرة النبى الكريم الذى أن رآه بادره قائلا : « ويحك أبا سفيان الم يأن لك أن تعلم أنه لا اله إلا الله !؟

فرد أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ... ما أحملك واكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله اله غيره فقد أغنى شيئا بعد .

قال النبى ﷺ : ويحك أبا سفيان الم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله !؟

قال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ! وما أحملك واكرمك وأوصلك . أمَّا والله هذه فإن فى النفس منها حتى الآن شيئا !

وهنا تدخل العباس . موجها الكلام إلى أبى سفيان . أن يسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تدق عنقه . ولم يجد أبو سفيان أمام هذا الموقف . إلا أن يسلم .

فتوجه العباس بالقول إلى النبى ﷺ قائلا : يارسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فأجعل له شيئا . فقال النبى : « نعم . مَنْ دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومَنْ أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

وعلى الجانب الآخر لم يقلل اسلام زعيم الشرك أبى سفيان بن حرب

من حرص المسلمين وحذرهم . بل احتاطوا أشد الاحتياط . وأمر النبى ﷺ أن يستبقى أبو سفيان بمضيق عند مدخل الجبل المؤدى إلى مكة . . . حتى تمر أمامه القوات ليراها عن قرب ، وليحدث بها قومه من ناحية ، وحتى لا يكون فى عودته إليهم مسرعا إحتمال وجود أى مقاومة من ناحية أخرى .

وكانت خطة موفقة من النبى ﷺ ، فبعد مرور القوات على أبى سفيان قال موجها حديثه للعباس عم النبى ﷺ : يا عباس ! ما لا أحد بهؤلاء قبل ولا طاقة .

ثم انطلق إلى قومه صائحا بأعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به . فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومَنْ أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

وتقدم النبى الكريم ... حتى أصبحت مكة أمامه دونة مقاومة . . فزاد حذره وإحتياطه . حيث وزع قواته إلى أربع فرق . جعل الزبير بن العوام قائدا للجناح الأيمن على أن يدخل مكة من شمالها . وجعل خالد بن الوليد على الجناح الأيسر وأمره أن يدخل مكة من أسفلها . وجعل سعد ابن عباده على قوة أهل المدينة ليدخل مكة من جانبها الغربى ، وجعل أبو عبيدة بن الجراح على رأس المهاجرين ليدخلوا مكة من أعلاها . وأمرهم جميعا ألا يقاتلوا وألا يسفكوا دما إلا إذا اكرهوا على ذلك . حتى أنه عندما علم أن سعد بن عبادة كان يريد اراقة الدماء عزله على الفور وعين بدلا منه إبنه قيس بن سعد عليهما رضوان الله . حيث كان الإبن أكثر هدوءًا من أبيه . فالنبى ﷺ يريد أن يدخل مكة دون اراقه دماء .

ودخلت الفرق الأربعه مكة دون مقاومة إلا فرقة خالد بن الوليد رضى الله عنه ... لقيت مقاومة من عكرمة بن أبى جهل . وبعض رجاله الاشداء . ولكن سرعان ما أنتصر عليهم خالد بن الوليد . وفروا هاربين خارج مكة .

وسار النبى ﷺ حتى بلغ الكعبة ، فطاف بالبيت سبع مرات حتى إذا انتهى من طوافه دعا عثمان بن طلحة ففتح الكعبة ، ليقف النبى الكريم على بابها ويخطب الناس مستهلا خطبته بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقنانكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله آتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ثم سألهم وردوا عليه وكانت كلمته فأذهبوا فأنتم الطلقاء » لتكون بمثابة العفو الشامل □

وجـــاء
يـــوم
حنين

ولم يمض على لقاء المسلمين فى مكة بعد فتحها أياما من رمضان السنة الثامنة للهجرة حتى كانوا على موعد آخر مع الحرب فى حنين . فهناك على مقربة من مقامهم بمكة كانت هوازن متربصة . والسبب هو ما وصلها من أنباء غير سارة بالنسبة لرؤوس الشرك والكفر فيها . هذه الأنباء تفيد بأن المسلمين يتقدمون فى صراعهم الدائر مع رؤوس الشرك على إمتداد الجزيرة العربية لصالحهم بالطبع . وكيف لا وقد تم لهم فتح مكة أكبر معقل للشرك فى المنطقة فحطموا أصنامها ، وشردوا ساداتها إلا من

آمن ؟ ومعنى هذا كله أن الدوائر سوف تدور على هوازن هى الأخرى فلابد أن تكون على أهبة الاستعداد للمواجهة . ويا حبذا لو كانت هى البادئة بالهجوم ... لتعيد للشرك هيبته التى أهدرت - على ما يظنون - على أيدى أصحاب هذا الدين الجديد !؟

عندئذ جمع كبيرهم « مالك بن عوف النضرى » زعيم ثقيف زعماء كل من هوازن وثقيف إلى جانب نضر وجشم ليتباحثوا فى أمر هذا الدين الذى يتقدم بسرعة واطراد حتى يوقفوه عند حد فإن لم يفعلوا فما حدث لمكة سوف يحدث لهم لا محالة وانتهى إجتماع الشرك على أمر مؤداه . هو أن يتحركوا إلى قمم جبل حنين عند مضيق الوادى . حتى إذا نزل المسلمون ... وكثيرا ما ينزلون .. فهذا الوادى طريق ... هجموا عليهم هجمة رجل واحد تفقدهم توازنهم وتذهب من هول مفاجأتها بصوابهم . والأكثر والأهم تفقدهم لذة الإحساس بالإنتصار العظيم الذى تحقق منذ أيام فى مكة . فيعيدون حساباتهم من جديد . مدركين أن أرض الجزيرة العربية ليست ملكا لهم بعد فتح مكة وضرب رؤوس الشرك فيها . لأن فى هذه الأرض ما زال هناك رجال يدفعون الضر عنها ، وأى ضر بعد تحطيم أربابهم وأصنامهم وموروثاتهم !؟

ووافق زعماء القبائل الأربعة على هذه الخطة التى عرضها عليهم كبيرهم زعيم ثقيف « مالك بن عوف النضرى » . وكيف لا يوافقون على خطة تلتقى عندها مصالحهم جميعا . هذه المصالح التى تتركز فى كسر شوكة الإسلام بوقف زحفه وتقدمه ومن بعد انتشاره فى طول البلاد وعرضها . ومن يمنعه بعد فتح مكة !؟

وفى الجانب الآخر ... جانب المسلمين المنتصرين والعائدين إلى ديارهم بعد أن شردوا منها . فهم ولا شك يعيشون أحلى أيام النصر المؤزر مختالين بقوتهم التى أفقدت مكة وصناديدها من رجال الحرب والسياسة توازنها . فرحين بعودتهم إلى موطنهم الحبيب مكة .

ويستثنى منهم النبى ﷺ . الذى كان هو ونفر قليل من صحابته يدركون تماما أن الجولة لم تنته بعد مع رؤوس الكفر فى المنطقة وأن الإنتصار فى مكة لن يمر هكذا ببساطة . فهذا الانتصار وضع على عاتقهم مسئوليات جديدة لعل أبسطها المحافظة عليها فهناك من يتربصون بالمسلمين الدوائر . وبالفعل نبه النبى ﷺ رجاله والمقربين منه أن هناك ما يحاك له وللمسلمين من تدابير وعليهم مواجهتها . بكل ما أوتوا من قوة ومن رباطه الخيل .. فالخطر قادم من هناك ... من ثقيف وحلفاء الشر هوازن ونضر وجشم . ولهذا الخطر ميدان تتم فيه المواجهة هو حنين . فلابد الاعداد له . والاستعداد لمواجهته .

وكان الاعداد متمثل فى تجهيز جيش للمسلمين قوامه اثنى عشر مجاهدا . من بينهم الفين من رجال مكة الذين آمنوا بالإسلام ونبيه بعد الفتح . وتحرك هذا الجيش المختال بقوته وعدته وعتاده حتى بلغوا حنينا . التى تمركز على قممها المشركين عند المساء . وعسكروا على مقربة . فليس هناك ما يفعلونه ليلا خصوصا وهم مدركين أن العدو يملكهم وهم لا يملكونه هذه الساعة . فلينتظروا حتى يروا .

وقد رأوا ، فتأكدت توقعات النبى ﷺ من أن المشركين يضمرون

له شرا ... ففى هذه الفترة القصيرة التى يلتقى بها الخيط الاسود من الليل بالخيط الابيض من النهار ... شد المشركون شدة رجل واحد ... على هؤلاء المسلمين الذين ما برحوا يلتقطون الأنفاس من مسيرة يوم أو بعض يوم . شدوا عليهم فأمطروهم بالنبال . فأضطرب المسلمون وبالفعل اختل . توازنهم كما خطط رؤوس الشرك . حتى أن هناك من المسلمين مَنْ أطلق ساقيه للرياح فرارا بحياته ... التى أصبحت رهينة هذا النبل أو ذاك السهم . وخيم عليهم شبح الهزيمة ، وفى غمضه عين وإنتباهتها تغير حالهم إلى حال آخر . إذ تبدل الاعجاب والاختيال بقوتهم وكثرتهم ومن قبل إنتصارهم إلى إحساس بالخوف والجزع والإنكسار . فى الوقت الذى بدأت فيه شماتة المنهزمين مؤخرا من أبناء مكة أولئك الذين مازال فى قلوبهم مرض . فلم يكن الإسلام قد رسخ فى قلوبهم بعد .

يحدث هذا .... وتتحقق توقعات النبى ﷺ . وهو باقيا هناك فى مؤخرة قواته يراقبها فى أسى وأسف . يراقب انسحاب فرق المسلمين واحدة بعد أخرى منهزمة مختلة التوازن . الكل فى فزع من هول هذا الهجوم الخاطف المنحدر عليهم من قمة الجبل . ويحاول النبى ﷺ أن يهدىء من روع هذه الجموع المضطربة . والتى أصبح لا قبل لها فى مواجهة شدة هذا العدو . يحاول عليه الصلاة والسلام ولكن دون جدوى . أمرا جعله يندفع بنفسه صلوات الله وسلامه عليه . إلى صدر هذا السيل المتدفق من قوات العدو حتى يعمل على تثبيت هذه القلوب الواجفة . فيعيد اليها بعض اطمأنانها . منبها إياهم أن هذه خطة للهجوم المكثف لئن ثبتوا

أمامها فسوف يكسبون المعركة وينقلب الوضع . كان يندفع وسط الصفوف مع أنه كان مستهدفا من العدو ... ولا يرجع إلى مركز قيادته إلا بعد أن يتكاثر حوله المسلمين فينكشف الأمر . فيرصده بوابل من نباله وسهامه . يعود إلى موقعه ويتكاثر حوله صحابته ممسكين بخطام دابته ... حتى لا تتحرك بصاحبها ﷺ ... وتسوء أحوال المسلمين لحظة ... بعد أخرى . فما الحرب إلا لحظات فيها النصر أو فيها الهزيمة .

وهنا طلب النبى ﷺ من عمه العباس أن ينادى المسلمين فيردهم ... فنادى العباس بصوته الجهورى : « يامعشر الانصار الذين آووا ونصروا !! يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ! إن محمدا حى فهلموا ... » وكرر العباس النداء حتى تجاوبت أصداؤه فى جنبات الوادى ، عندئذ ثاب كل إمرئ إلى صوابه ... وتذكر أن فى انسحابه هزيمة لدينه ، ومحو لكل جهاده وعار ما بعده عار .. وهنا علت الاصوات مرددة : « لبيك ... لبيك » .

وأرتد المسلمون راجعون إلى ميدان الوغى . وتمهل الذى اطلق ساقيه للرياح . وتحولت سلبية الشامتين إلى إيجابية حتى لا ينكشف أمرهم بعد . وفى الوقت نفسه انكسرت موجة الهجوم الخاطف وضعفت حدته ، وانحدرت قوات المشركين من قمة الجبل إلى أسفل سفحه ، حتى أصبحوا وجها لوجه مع المسلمين فى الوادى ، وطغى ضوء النهار على ظلمة الليل ، وازداد المسلمون تماسكا والتحاما . وبدأ الصدام بين الطرفين . فنادى ﷺ : « الآن حمى الوطيس إن الله لا يخلف رسوله وعده » ثم ناول عمه

العباس حفنة من الحصى القى بها فى وجوه المشركين مرددا : « شاهت الوجوه » .

وواصل المسلمون إندفاعهم . أمرا جعل العدو يفشل فيما خطط وفكر . وأنقلب ميزان المعركة لصالح المسلمين . عندئذ لاذت قوات العدو بالفرار خوفا من الفناء . تاركين نساؤهم وأمتعتهم وأموالهم ورجال منهم بلغوا الستة آلاف أسيرا للمسلمين .

وتعقب المسلمون المشركين إلى هوازن ، وانتصروا على فلولهم أكبر الانتصار . وأما كبيرهم مالك بن عوف . ذلك المحرض الأكبر على قتال المنسلمين . فقد فر مع قومه ثقيف ليحتمى هناك بالطائف . وكان النصر للمسلمين بعد هزيمة منكرة وفى ذلك قول الله تعالى : ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ .

طبيعى أن يتعقب المسلمون بعد النصر المحرض الأول على قتالهم مالك بن عوف . الذى إحتمى بالطائف . وكانت خطة المسلمين هى بتضييق الحصار على الطائف نفسها حتى تستسلم وتسلم « مالكا » وقد نجحت خطة حصار المسلمين لاعدائهم فى خيبر بعد أُحُد ، وبنى قريظة بعد الخندق ... فلتحاصر الطائف بعد حنين ... لكن الطائف كانت مدينة محصنة لرجالها خبرة ودراية بفنون القتال . إلى جانب ذلك هم أصحاب ثروات طائلة . تجعل حصونهم أكثر قوة ومنعة .

فى بادىء الأمر حدث تراشق بالنبال بين الطرفين ورأى النبى ﷺ أن إقتحام هذه الحصون قد أصبح مستحيلا . وأن بقاء المسلمين أمام هذه الحصون أصبح صعبا . ففكر عليه أفضل الصلاة والسلام فى أسلوب آخر .. أن يضرب الطائف بالمنجنيق . حتى يسهل للمسلمين الاقتحام تحت ستار الضرب . لكن رجال الطائف استطاعوا أن يصدوا هذا الهجوم . بل وكبدوا المسلمين خسائر جديدة .

وفكر النبى ﷺ فى أسلوب ثالث . كان قد نجح فى الحرب مع بنى النضير يوم حرق نخيلهم . فلماذا لا يحرق المسلمون كروم الطائف ذات القيمة العالية فى بلاد العرب . حتى يخرج أصحابها من خلف الحصون كما تخرج الثعابين من جحورها عندما تشعر بالنار تقترب اليها .

وما أن بدأ المسلمون فى تنفيذ هذه الخطة حتى سارع المشركون بإرسال من يبلغ النبى ﷺ على لسانهم أن يأخذ الكروم لنفسه إن شاء ، أو أن يدعها لله وللرحم لما بينه وبينهم من قرابة . وهنا أوقف النبى الكريم رجاله . ثم نادى أنه معتق من جاء اليه من الطائف . ففر اليه من خلف الحصون عشرون من أهلها . عرف منهم أن بالحصون ذخيرة . تكفى شهورا . عندئذ قرر النبى ﷺ العودة خصوصا بعد أن لمس ذلك فى عيون رجاله . واعدا بأنه سيعود بإذن الله إلى الطائف قريبا □

ليلة القدر ليلة تعظيمه

فى هذه الليلة من رمضان شرف الله سبحانه وتعالى نبينا ﷺ وعظمه حين خصه دون العالمين بالرسالة السماوية ، وبنزول القرآن الكريم . وهذه الليلة التى نزل فيها القرآن وبدأت الرسالة هى ليلة القدر بنص الآية الكريمة : ﴿ إنَّا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ . وما دام القرآن الكريم قد نزل فى ليلة القدر ، وأنه سبحانه وتعالى قد أنزل القرآن فى شهر رمضان .. بنص الآية الكريمة . ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾

يعنى « نزول القرآن الكريم » هو المعنى المشترك بين ليلة القدر ، وشهر رمضان ، إذن يتعين أن تكون ليلة القدر فى شهر رمضان .

لكن ما معنى ليلة القدر ؟ يجيب الشيخ الإمام محمد عبده رحمه الله : سميت ليلة القدر إما بمعنى ليلة التقدير ، لأن الله سبحانه وتعالى ابتدأ فيها تقدير دينه ، وتحديد الخطة لنبيه ﷺ فى دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه . أو بمعنى العظمة والشرف . فمن قولهم فلان له قدر أى له شرف وعظمة . لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرفه وعظمه ، بالرسالة » .

والسؤال الذى يطرح نفسه ، ولا شك يجول بخاطر كل مسلم هو : وفى أى ليلة من ليالى رمضان تكون لبلة القدر ؟ الشيخ الإمام عبد الحليم محمود رحمه الله يقول : « القرآن الكريم لم يحددها ، والنبى ﷺ لم يحددها أيضا . وإن كان قد حددها بالتقريب حيث يقول عليه أفضل الصلاة والسلام : « تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان » أى أطلبوها فى العشرة الأخيرة من رمضان ثم يقربها عليه أفضل الصلاة والسلام « تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان » ثم يقرب الأمر أكثر وأكثر ما يرويه ابن عمر رضى الله عنهما (قال رسول الله ﷺ من كان متحريها فليتحرها ليلة السابع والعشرين) أى يطلبها فى ليلة السابع والعشرين من رمضان » .

ولقد رآها كثير من صحابة النبى ﷺ فى السبع الأواخر من رمضان كما تحدثنا الكتب قديمها وحدثها . وها هو أبّى بن كعب رضى الله عنه يقول : « والله الذى لا اله إلا هو أنها فى رمضان ، والله إنى لأعلم أى

ليلة هى ، هى ليلة التى أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها . هى ليلة سبع وعشرين وأماراتها أن تطلع الشمس فى صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها » .

على أن هناك محاولات عديدة فى سبيل تحديد ليلة القدر ، وأقوال كثيرة وطريفة فى الوقت نفسه . منها مثلا ما قاله البعض من أن عدد كلمات سورة « القدر » فى القرآن الكريم ثلاثون كلمة كعدد أيام شهر رمضان وكلمة « هى » التى تشير إلى ليلة القدر فى قوله تعالى ﴿ سلام هى ﴾ تقع عند رقم سبعه وعشرين من عدد كلمات السورة . هذه محاولة .

ومحاولة أخرى لا تقل طرافة وهى أن حروف « ليلة القدر » تسعة حروف . وقد ذكرت ليلة القدر فى السورة ثلاث مرات على النحو التالى ﴿ إنَّا إنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ يعنى عدد الحروف فى تكرارها ثلاث مرات يكون الناتج عندئذ سبعة وعشرين . وهذه محاولة .

ومحاولة ثالثة لا تقل عن المحاولتين السابقتين طرافة وهى أن ليلة القدر لا تفارق ليلة الجمعة من أوتار آخر الشهر كما روى ذلك ابن العربى رحمه الله .

وغيرها من المحاولات ... إلا أنه من الثابت لنا أن القرآن الكريم لم يعينها تعيينا محددا ، وأن النبى ﷺ لم يحددها تحديدا تاما . وبالطبع لذلك حكمة لعلها تقترب من حكمة عدم تحديد اليوم الذى يقبض فيه الإنسان إلى ربه . فلو عرف الإنسان هذا حتى لو كان بعد الف سنه فإنه يظل

دائما فى حالة رعب من إتيان هذا اليوم . كذلك الحال فى عدم تحديد ليلة القدر . عندها تتحول هذه الليلة العظيمة التى كانت فاتحة عهد جديد من تاريخ الضمير فيه هدى للناس . إلى « فرصة » أو « أوكازيون » بلغة هذا الزمان فيه يعد الإنسان قائمة برغباته وطلباته التى يرجوها من الله عز وجل .

وهذه الليلة لها أفضالها التى لا تحصى ولا تعد . فيكفى مثلا أن يتحدث عنها القرآن الكريم فى سور ثلاث من سوره . فى سورة البقرة يقول تعالى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ ، وسورة الدخان حيث يقول تعالى : ﴿ إنَّا أنزلناه فى ليلة مباركه ﴾ وسورة القدر حيث يقول تعالى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ .

وفى مقدمة أفضال هذه الليلة أن القرآن الكريم نزل فيها إلى درجة أن هناك من أهل العلم من يقول أن القرآن أنزل جملة واحدة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وأن جبريل عليه السلام . تنزل به بعد ذلك على النبى منجما مفرقا حسب مقتضيات الحال فى ثلاث وعشرين سنة .

إلا أن الإمام الشعبى رحمه الله وهو من جلة العلماء يقول : « إن المقصود من إنزال القرآن فى ليلة القدر هو ابتداء نزوله » ويؤكد هذا الرأى ما جاء فى « لسان العرب » حيث يرى صاحبه أن يكون المراد من انزال القرآن هو إبتداء النزول .

ويميل إلى هذا المعنى جلة من علمائنا المحدثين منهم الشيخ أحمد

حسن الباقورى رحمه إذ يقول أن القرآن صور لهذا المعنى . تجعل القول من الإمام الشعبى ، وصاحب « لسان العرب » قولا سائغا ومقبولا . إن لم يكن متعينا لابد منه . فذلك حيث يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ فإن المراد هنا أن من حضر أول الشهر فعليه أن يصومه . فأطلق الشهر وهو الكل ، وأراد أول ليلة منه وهو الجزء . وإذا ساغ هذا المعنى فقد ساغ هناك بغير فرق » .

ومن فضل هذه الليلة أن الله سبحانه وتعالى خصص لها سورة فى القرآن الكريم للحديث عنها دون غيرها وهى سورة القدر .

كذلك من فضلها أن الله تعالى جعلها خيرا من الف شهر ، والألف شهر هى ثلاثة وثمانين عاما وأربعة أشهر . وهو عادة عمر الإنسان . إذن فهى خير من عمر الإنسان بأكمله ... ماضيه ومستقبله . أى أنها خير من الدهر كله بالنسبة للإنسان .

ومن أفضالها أيضا أن خصها الله تعالى دون غيرها من الليالى بالسلام من غروب الشمس حتى مطلع الفجر بنص الآية الكريمة ﴿ سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ .

فإذا كان هذا هو تقدير القرآن لهذه الليلة المباركة . فإن النبى ﷺ كان يجلها أيضا . ويحتفى بها ويعظمها على غيرها من الليالى . فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « دخل رمضان فقال رسول الله ﷺ . إن هذا الشهر قد حضر وفيه ليلة خير من الف شهر . من حرمها فقد

حرم الخير كله ، ولا يحرم خيرها محروم » تقدير وتعظيم من النبى الكريم لهذه الليلة .

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الاخير من رمضان . شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « أخبرنا رسول الله ﷺ عن ليلة القدر فقال هى فى شهر رمضان فى العشر الأواخر ... ليلة ، إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين أو آخر ليلة من رمضان . من قامها إيمانا وإحتسابا غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر » .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « قال ﷺ إذا كان ليلة القدر نزل جبريل فى كبكبة من الملائكة يصلون على كل قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل ... » .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : إن رسول الله ﷺ اعتكف العشر الأول من رمضان ، ثم اعتكف العشر الأوسط فى قبة تركية ، ثم أطلع رأسه فقال عليه الصلاة والسلام إنى أعتكف العشر الأوائل التمس هذه الليلة ، ثم اعتكف العشر الأوسط . ثم أتيت فقيل لى : إنها فى العشر الأواخر . فمن كان اعتكف معى فليعتكف العشر الأواخر . ثم أرأيت هذه الليلة ثم أنسيتها . وقد رأيتنى أسجد فى ماء وطين من صبيحتها ، فألتمسوها فى العشر الأواخر ، والتمسوها فى كل وتر » .

قال أبى سعيد : « فمطرت السماء تلك الليلة . وكان المسجد على

عريش .... فبصرت عيناى رسول الله ﷺ ، وعلى جبهته أثر الماء والطين صبيحة إحدى وعشرين » .

لكن ما هو سلوك من يتشرف برؤية ليلة القدر ؟ سؤال ربما وجهت مثله إلى النبى ﷺ زوجته السيدة عائشة رضى الله عنها حيث قالت : « قلت يارسول الله أرأيت أن علمت ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال عليه الصلاة والسلام : اللهم أنك عفو تحب العفو فأعفى عنى » .

وقد يختلف الناس حول تصورهم لليلة القدر ، وسلوكهم فيها حسب بيئاتهم وثقافاتهم . فمنهم مَنْ يستقبلها بقيام ليلها وصيام نهارها إمتثالا لأمر الله عز وجل . ومنهم من يتصورها تصور إنتفاع عاجل وتجارة رابحة ، وسماء تفتح أبوابها ، وأنوار تفيض أضواءها ، ومطالب من الله عز. وجل لا تخيب ، ومنهم من يراها مناسبة فيها توزع الهدايا والعطايا .. وياليتنا نتصور هذه الليلة كما تصورها أهل العلم حين رأوا أن ليلة القدر هى ظرف زمنى لطلائع النور المعنوى من كتاب الله . بالضبط كما كان غار حراء ظرفا مكانيا لتلك الطلائع □

لقـــاء
هـــرقل
فـــى
تبـــوك

ويخبرنا ابن اسحاق بما يسجله ابن هشام فى السيرة النبوية . وهو ما تنقله الكتب بعد ذلك قديمها وحديثها بموضوع غزوة تبوك ... من أن عودة النبى ﷺ من آخر غزواته فى تبوك ... كانت فى رمضان العام التاسع للهجرة ... وهو فى التاريخ الإسلامى عام الوفود كما سترى بعد قليل أو عام التوبة بنص قوله تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق

منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الإرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاَّ إليه . ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ .

صحيح أنه لم يحدث فى تبوك اشتباك مباشر بين جيش العسرة الاسلامى الذى تأتى الاشارة اليه فى الآية الكريمه . هذا الجيش البالغ تعداده ثلاثين الف مجاهدا . وبين جيوش الروم التى تعد وقتئذ بمئات الآلاف . لم يحدث اشتباك بين القوتين بإستثناء هذه الاشتباكات الفردية فى الطريق مع بعض القبائل على الحدود . إلا أن قيمة هذا اللقاء بين المسلمين والروم كانت فى توجيه أنظار العالم القديم إلى قوة جديدة تضاف إلى القوتين العظميين الروم والفرس . هى قوة الدولة الإسلامية الناشئة . فيحسب لها حسابا ضمن القوى فى الميزان الدولى . ومع هذا فقد كانت لكل من الطرفين المسلمين والروم دوافعه فى هذا اللقاء . الذى لم يحدث فيه اشتباك مباشر بينهما .

كانت دوافع هرقل امبراطور الروم كثيرة . منها ما كان مبنى على اسطورة تقول إن شعبا مختونا سيستل ملكه . وها هم العرب الذين بعث الله فيهم رسولا منهم شعب مختون . وأن نبوة هذا الرسول ﷺ لقادرة على أن تجمع أشتات هذا الشعب لغزو الامبراطوريات التى نخر فيها الفساد . وينظر هرقل حوله فى العالم القديم . فلا يجد إلا إمبراطورية الروم بعد هزيمة الفرس هى وحدها المنتظرة لهذا الغزو . فلماذا لا ينقض على هذه الدولة الناشئة ذات الشعب المختون قبل أن يشتد ساعدها .

ويتأكد له صدق ما تتنبأ به هذه الاسطورة حين يبحث فى أمر هذا الرسول العربى . الذى يبعث اليه خطابا . فى صيغة قوية يختمها بقوله عليه الصلاة والسلام : « اسلم تسلم » ويقرأ الخطاب قراءة عناية وتدبر ويعيد قراءته مرة ومرات .. ولا يكتفى وبذلك وإنما يطلب المزيد من المعرفة عن هذا النبى الذى يكتب بهذا الاسلوب لعاهل أكبر دولة فى العالم القديم ... يريد معلومات جديدة عن صاحب هذا الخطاب حتى يستطيع من مجموعها أن يرسم له صورة صحيحة فيسأل عما إذا كان بالمدينة بعض العرب الذين يعرفون هذا النبى العربى . فقيل له : إن بالمدينة تجارا من مكة يعرفون محمدا بأعتباره من مواطنيهم . فأمر بإحضارهم وكان منهم أبو سفيان بن حرب .

وكما يسجل الشيخ الإمام عبد الحليم محمود فى كتابه عن الرسول ﷺ . سأل هرقل عن أقرب هؤلاء العرب نسبا إلى الرسول فكان أبو سفيان أقربهم . فقربه منه هرقل وقال لهم : إنى سائله عن أمور فإن كذبنى فكذبوه » .

قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علىَّ كذبت لكذبت عليه .

وبعد أن انتهى هرقل من أسئلته بدأ – عن طريق الترجمان – يقول لأبى سفيان على مشهد من الملأ الحاضر من أصحاب هرقل ، ومن أصحاب أبى سفيان : سألتك عن نسبه . فذكرت أنه فيكم ذا نسب . فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت : أن لا . فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتى يقول قبل قبله .

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا . قلت لو كان من آبائه من ملك ، قلت رجل يطلب ملك أبيه ؟

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت : أن لا . فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك : أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت ضعفاءهم اتبعوه . فقلت أنهم أتباع الرسل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون . فقلت وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا . فقلت وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت : أن لا . فقلت وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك : بم يأمركم . فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

بعدئذ قال هرقل : فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين ثم يضيف هرقل : وقد كنت اعلم أنه خارج . لم اكن أظن أنه منكم . فلو أنى أعلم . أنى أخلص اليه . لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت قدميه .

تأمل هذه المناقشة التى دارت بين هرقل وأبو سفيان ، وصحبه وكانوا على شركهم . لتتأكد كم كانت عظمة الرسول بإعتراف الإعداء وفى مقدمتهم أبو سفيان وقتئذ وهرقل الذى ينتظر لقائه ويعمل لهذا اللقاء الف حساب .

* * *

كذلك من دوافع هرقل تحديد نفوذ هذه الأمة الإسلامية الناشئة فهذا النفوذ لا يكتفى بتهديد نفوذه السياسى فى المنطقة ويتجاوزه إلى نفوذه الإقتصادى إلى الدينى أيضا . حيث حرر هرقل بيت المقدس من مجوسية الفرس . ورفع عليه الصليب مؤخرا .

* * *

وفى المقابل هناك دوافع للمسلمين للقاء بالروم . ومنها الحد من نفوذ الروم فى شبه الجزيرة العربية . وتحديه – وإن كان فى ذلك مهذبا رقيقا – لدعوة النبى ﷺ ورفضه لها ورفض عامله بالشام الحارث الغسانى دعوة النبى صراحة وتفكيره فى مناجزة المسلمين وحربهم وتأديبهم محتميا بهرقل ، ومن دوافع المسلمين أيضا الثأر لمن استشهد منهم فى مؤته وعلى رأسهم ثلاثة من خيرة رجالهم هم زيد بن حارثه ، وعبد الله بن رواحه ، وجعفر ابن أبى طالب ... ونجاة خالد بن الوليد وجيشه بالانسحاب لا منتصرين ولا منهزمين كما عرفنا من قبل .

يضاف إلى ذلك حشود الروم على الحدود التى تهدد أمن وسلامة الدولة الإسلامية الناشئة . فلابد وأن يكون هناك مواجهة لهذه الحشود .

وهنا فكر النبى ﷺ . إما أن يتركهم يتقدمون فى صحراء الجزيرة العربية ويخرج ليلقاهم فى المكان الذى يحدده .

أو أن يخرج إليهم ويهاجمهم . ويختار الأمر الثانى حيث يرى أن الإنتظار حتى يتوغلوا فى صحراء بلاده . يترتب عليه خسران القبائل التى اسلمت أو القبائل التى تحالفت مع المسلمين .

لا بديل إذن عن الاستعداد للخروج اليهم . وفى سبيل ذلك قام عليه الصلاة والسلام بإجراء لم يتعوده منه رجاله فيما سبق من غزوات . وهو الدعوة علنا للجهاد فى سبيل الله حتى يعد الناس عدتهم . نظرا لبعد المسافة عن العدو ، ولشدة الحرارة ، ولسوء الحالة الإقتصادية ، ولكثرة العدو وقوته .

وهنا تباينت المواقف . فبينما المؤمنون يتحرقون شوقا إلى هذا اللقاء للثأر لإخوانهم فى الله . نجد المنافقين يجهدون أنفسهم لبث روح الهزيمة .

وفى الجانب الآخر نرى النبى ﷺ يحث أهل الغنى على الجود بمالهم فى سبيل الله فتتحول أموال كل من عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن ابن عوف وأبو بكر الصديق رضى الله عنهم إلى خزينة الدولة . منها يجهزون هذا الجيش الإسلامى . بل ونراه صلوات الله وسلامه عليه يشاور الرجال فى هذه الغزوة ومنهم « الجد بن قيس » زعيم مسلمه فيقول له ﷺ : « ياجد

هل لك فى جلاد بنى الأصفر (أى قتال الروم) ؟ فيرد الجد مستأذنا فيقول : « يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عجبا بالنساء منى وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر » فأعرض عنه النبى الكريم . وفى ذلك نزل قول الله تعالى : ﴿ ومنهم من يقول إئذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنه سقطو وإن جهنم لمحيطه بالكافرين ﴾ ومن المنافقين من كان يستمع إلى النبى الكريم ، ويوافق على الجهاد . ولكنه بعد ذلك يتسلل إلى المؤمنين قائلين لهم : « لا تنفروا فى الحر » حتى يقعدونهم عن الجهاد وفى ذلك قال تعالى : ﴿ وقالوا لا تنفروا فى الحر نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ .

وخرج النبى ﷺ قبل رمضان بأيام قليلة فى ثلاثين الفا من المجاهدين إلى تبوك . فيعقد الالوية والرايات لصحابته من المخلصين . وسار جيش العسرة الإسلامى . وسط صعوبات لا يتصورها عقل . فالطريق وعرة ، والمسافة بعيدة ، والمناخ قاتل ، والإمكانيات متواضعة . حتى كان الظمأ يقطع الرقاب إلى درجة أن المؤمنين كانوا ينحرون ابلهم ، ويشقون بطونها ، وليشربوا ماءها ويعتصرون اكبادها حتى تبل شفاهم . التى جفت من شدة الحرارة . وراح أبو بكر رضى الله عنه ينظر إلى الرجال والدموع تترقرق فى عينيه والكلمات تتلظى فى لسانه : « أيموت الناس عطشا ورسول الله فيهم !؟ » حتى إذا ذهب إلى النبى ﷺ قال : « يارسول الله . قد عودك الله من الدعاء خيرا فأدعو الله لنا » فرد النبى الكريم :

« أتحب ذلك ؟ » قال أبو بكر : « نعم » فدعا النبى ﷺ . فإذا بسحابة تحجب الاشعة المحرقة لهذه الشمس الساطعة فتمطر .

وكأن أفواه من السماء فتحت بالماء ليستقبلها الظامئون اللاهثون والأصوات ترتفع بشكر الله .

وياليت ما يلاقيه المؤمنين من قسوة الطبيعة يطاول ما يلاقونه من قسوة المنافقين من بنى الإنسان الذين يستخدمون حربا نفسيا تفتت الاعصاب وها هو أحدهم يردد بين المقاتلين على أثر جموح ناقة النبى الكريم قائلين : « رسولكم يريد غزو الروم وهو لا يعرف أين ناقتة » ويأتيهم من يبلغهم على لسان النبى الكريم أن الناقة مكان كذا تمنعها شجرتين . ليمضى القوم فيجدونها كما حدد النبى ﷺ .

ورغم ذلك تتقدم قوات المؤمنين بعد أيام من المشقة والعسرة ليفاجأوا بأن الروم قد إنسحبوا أمامهم بعد أن القى الله الرعب فى قلوبهم . فتصوروا أن تعداد المسلمين عشرة أمثال تعدادها الحقيقى .

ولم يظهر لهرقل وجيوشه أثر حيث انسحب مع قومه مغلوبا على أمره بنص الآية الكريمة : ﴿ الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر الله من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

وبغزوة تبوك تمت كلمة ربك فى شبه الجزيرة العربية كلها . وآمن محمد ﷺ كل عادية عليها . وأقبل سائر أهل الجزيرة وفودا عليه يتقدمون

منه للإيمان به وبدينه ذلك الدين الذى صنع المعجزات . ولقد كانت هذه الغزوة خاتمة غزوات النبى ﷺ . من بعدها أقام بالمدينة مغتبطا بما أفاء الله عليه واكرامه بنصره □

الطائـــف
تبـــدأ
الإســـلام
صـــوما

وكما عرفنا عاد النبى ﷺ من تبوك إلى المدينة منتصرا فى أوائل رمضان من العام التاسع للهجرة . وبالإضافة إلى هذا النصر المؤذر من عند الله سبحانه وتعالى والذى بعده أصبح المسلمين ليسوا فى حاجة إلى قتال بعد أنسحاب أكبر دولة أمامهم . بالإضافة إلى كل ذلك فقد أبرم معاهدات أهل الحدود منها معاهدة مع يوحنا بن رؤبه صاحب « أيله » والتى بمقتضاها يمنحه النبى ﷺ أمنا على سفيهم وسيارتهم فى البر والبحر

فى مقابل أن تدفع أيلة للمسلمين جزية قدرها ثلثمائه دينار فى كل عام .

عاد بعد تحقيق كل هذه الإنجازات الضخمة فى تاريخ الأمم ... ليجد حدثا عظيما فى انتظاره عليه الصلاة والسلام . هذا الحدث متمثل فى وصول أحد زعماء ثقيف بالطائف « عروة بن مسعود » إلى المدينه ليعلن اسلامه . ليس هذا فحسب بل ويستأذن النبى ﷺ فى أن يعود إلى قومه ويدعوهم إلى الإسلام . ورغم اغتباطه عليه الصلاة والسلام بهذا الإنجاز الذى له دلالته بالنسبه لدعوة الإسلام إلا أنه أشفق على « عروة بن مسعود » مما فعل ومما سيفعل . لسابق معرفة النبى ﷺ بتعصب هذا القوم وشدته فى التمسك بدينه . فأخذ عليه الصلاة والسلام يحذره منهم قائلا : « إنهم قاتلوك » فرد عروة بن مسعود وقد كان متحمسا لما سوف يفعل ، فرحا بدخوله حظيرة هذا الدين العظيم قائلا : « يارسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم » وأخذ يدلل عما يعرفه من علو مكانته وقدره عند قومه ومحبتهم له .

والحق أن عروة بن مسعود كان عزيزا على قومه – كما تتفق أغلب الروايات – إلاَّ أن إعزازهم لصنمهم الأكبر « اللات » لم يكن أعز من إبن مسعود فحسب ، وإنما أيضا أعز من فلذات أكبادهم . فها هو بينهم يدعوهم إلى الإسلام ، وبأنه دخل هذا الدين بإختياره . فما كان من هؤلاء المتعصبين للشرك والكفر ... إلا أن أحاطوا به ورموه بالنبال من كل حدب وصوب حتى أصابه سهم قاتل . جزاء على ما فعل حين دعاهم إلى عبادة الواحد الأحد .

وهنا صدقت فراسة النبى ﷺ وتقديره وفهمه لهذا القوم من الجزيرة العربية . لكن رغم فداحة هذا الحدث وخطبه إلا أنه كان مؤشرا جديدا لأحداث أكبر وأعظم . هى فى استسلام الطائف نفسها . فلم يكن قتل عروة بن مسعود على أيدى هؤلاء المشركين من قومه جريمة نكراء تقترف بلا ثمن ، ولم يكن دمه كشهيد فى سبيل الله يراق هكذا بين الأهل والأحباب يذهب هدرا ... لم يكن كل هذا يحدث دون رد فعل من المسلمين هؤلاء الذين قويت شوكتهم فى داخل الجزيرة العربية وخارجها بعد انسحاب أكبر قوة فى العالم القديم وهى الروم أمامهم ، ، وبعد أن دان لهم جبابرة وصناديد مكة وولوا الأدبار أمامهم ليدخلوا مكة فى سلام آمنين . وبعد أن استطاع المسلمون أن يضعوا حدا لد سائس اليهود والمنافقين وأن يلزموهم بأن يكفوا عن ذلك وإلا كان مصيرهم هو نفس مصير مَنْ يحاول إيذاء الاسلام ورجاله .

وعلى الصعيد الآخر بدأ زعماء ثقيف يفكرون فيما فعلوا وهل كان حقا على صواب أم أنهم أخطأوا مرتين حين قتلوا عروة بن مسعود . مرة بقتل أحد زعماء القوم عروة ذلك الأثير لديهم ، ومرة حين كان سبب القتل هو الإسلام فكأنهم أصبحوا الآن معادين لهذا الدين عداء سافرا بعد أن كان مستترا إلى حين .

ويضاعف من قيمة هذا الحدث وهو توجه أحد زعماء ثقيف بالطائف عروة واسلامه وقتله بسبب ذلك أمور كثيرة ... أو ليست الطائف هى التى وعد النبى ﷺ بالعودة اليها حين كان يحاصرها فى غزوة

حنين ووعد النبى صدق وحق ؟ وأليست هى الطائف أعز القبائل العربية جاها ومالا وسلطانا ، وأكثرها منعة وتعصبا ضد الإسلام ؟ وأليست الطائف صاحبة « اللات » التى يحج إليها العرب كما يحجون إلى الكعبة ، ويقسمون باسمها كما يقسمون باسم رب الكعبة ؟ وأليست الطائف هى التى كانوا يسمونها مع مكة « المكتين » أو « القريتين » تقديرا لمركزها الدينى قبل الإسلام ؟ وأليست هى الطائف التى ناصبت الإسلام العداء منذ بزغ فجره ، فرفضت استقبال الرسول والذين معه ليحتموا بها من إيذاء قريش قبل الهجرة إلى المدينه ؟ ثم اليست الطائف هى التى لم تكتف برفض استقبال النبى الكريم والذين معه ، بل تعاونت مع قريش ورؤوس الكفر والشرك فى الجزيره العربيه ومعهم اليهود لإيذاء الإسلام وضربه فى مقتل ؟ .

* * *

وفى المقابل هنالك فى الطائف شعور جديد لعله ناتج عن قوة المسلمين الذين إنسحبت أمام معنوياتهم جحافل الروم ، وتحطمت على قيمهم وإيمانهم ومبادئهم غرور وصلف وكبرياء قريش ، ودانت لقوتهم اعتى القبائل فى شبه الجزيرة العربية شمالا وجنوبا وغربا وشرقا ... لقد أصبح الإسلام بكل هذه المقومات قوة عالمية بعد انسحاب الروم من أمامه . هذه الدولة العظمى التى هزمت فارس وأستردت منها الصليب .

وشعور آخر لدى الطائف لعله ناتج عن ادراكها بأنها أصبحت محاصرة إقتصاديا نتيجة لزيادة النفوذ السياسى للإسلام . فأين تروج تجارتها ؟ وفى أى المنافذ تسوق ما أشتهرت به فى الجزيرة العربية من كروم ؟

ومَنْ يجرؤ – فى ظل الأوضاع الجديدة – على التعامل معها متحديا بذلك قوة الدولة الإسلامية الناشئة ؟ وما موقفها الآن بعد أن أسلم كل من حولها من القبائل وبقيت هى على دينها تنتظر أن يحج اليها العرب كما كانوا يحجون . فلا يفعلون ؟ ماذا تنتظر بعد انهيار إقتصادها وهى تبقى فى مكانها متحدية بمقتل عزيز لديها فى مالها وثروتها ورجالها ؟ ماذا تنتظر ؟؟ ولماذا لا تهادن ؟ نعم لماذا لا تهادن هذه القوة التى تسحق كل مَنْ يقف أمامها ؟

وهنا فكر حكمائها فى سبيل آخر يخرجهم من هذا الموقف الصعب ، صلح ، أو هدنة أو أى شكل من أشكال التعايش السلمى الذى ينجيهم من الفناء . وبدأوا يتشاورون ويتناقشون واستقرت الآراء على أن يتوجه كبيرهم « عبد ياليل » السياسى الماكر . للتفاوض مع المسلمين . ولأن « عبد ياليل » كان داهية حقا . وعالما بأخلاقيات قومه أيضا وأولها الغدر ... اشترط أن يصحبه خمسة آخرين من زعماء القوم . حتى لا يكون « عبد ياليل » مصيره من قومه هو نفس مصير ريحانتهم عروة بن مسعود الذين تنكروا له وقتلوه . أن يصحب معه الخمسة الذين يمثلون عشائر مختلفة حتى إذا عاد وأرادوا قتله فلابد أن يقتلوا معه الخمسة . وهنا تهب العشائر مدافعة عن كبارها . فوافقوه على ذلك . فليس هناك حل آخر .

وتوجه وفد الطائف إلى المدينة . وعلى أبوابها التقوا بالمغيرة بن شعبه . وعرف منهم ما يريدون . فأسرع حاملا البشرى إلى النبى ﷺ

بمقدم وفد الطائف وفى الطريق التقى المغيرة بالصديق أبو بكر رضى الله عنه . الذى طلب منه – بعد أن سمع النبأ العظيم – أن يكون هو المبشر للرسول ﷺ . تقديرا لما يحمله هذا النبأ من أهمية كبرى .

وتعرَّف النبى ﷺ من أبى بكر رضى الله عنه على خبر وفد الطائف . وتشاور مع الصديق فى ذلك . وسمح بلقاء الوفد . ورحب بهم فى دار الإسلام حتى بعد أن رفضوا أن يحيوه بتحية الإسلام ، مصرين على أن يحيوه عليه أفضل الصلاة والسلام بتحية الجاهلية الأولى . ولأنه نبى ، ولأنه على خلق عظيم ، ولأنه ما بعث إلا رحمةً للعالمين ... اكرم وفادتهم . فأمر بأن تقام لهم قبة بجوار مسجده . وعيَّن خالد بن سعيد وسيطا فى المفاوضات بينه عليه أفضل الصلاة والسلام وبين وفد الطائف الذى سيتزعمه كبيرهم « عبد ياليل » .

وأثناء إقامتهم بالمدينة كانوا فيما صدر عنهم حذرين أشد الحذر ، إلى درجة إنهم كانوا لا يأكلون طعاما يأتيهم من عند المسلمين حتى يجعلوا ذلك الوسيط خالد بن سعيد يأكل منه قبلهم . كانوا إذا ناموا جعلوا أحدهم يقظا حتى يحرسهم مما قد يفعله فيهم المسلمين . كانوا لا يتحدثون إلاَّ وأيديهم على قبضات سيوفهم . كانوا وكانوا .. هى طبائع اكتسبوها من سنة الغدر بينهم ولم يدركوا بعد ان مَنْ دخل خطيرة الإسلام فهو آمن .

وتحددت المفاوضات بين الطرفين فى إطار استعداد هذا الوفد ومن ورائه الطائف أن يدخلوا الإسلام شريطة أن يترك صنمهم الأكبر « اللات » ثلاث سنوات وأن يعفيهم الإسلام من الصلاة . ورفض النبى ﷺ قائلا : « اسلامهم لا تسبقه شروط » .

حتى إذا خفضوا مدة بقاء صنمهم « اللات » بدون هدم سنتين من بعدها سنة من بعدها ستة أشهر أو حتى شهر كان رد النبى ﷺ : « اسلامهم لا تسبقه شروط » .

إلى أن قبلوا هدم « اللات » قائلين يحدث هذا ولكن بغير أيدينا حفاظا على مشاعر المتعصبين منا مع اشتراطهم الاعفاء من الصلاة . كان رد النبى ﷺ : « إنه لا خير فى دين لا صلاة فيه ، وهادم الصلاة هادم للدين ... الإسلام مع تحطيم اللات وإقامة الصلاة ... » .

وفى أثناء ذلك استرعى إنتباه الوفد ما يصنعه المسلمون فى صيامهم وقيامهم وتراحمهم حتى إن أحدهم « عثمان بن أبى العاص » كان يختلس من قومه الدقائق يعود منها بعد لقاء النبى ﷺ أو الصديق أبو بكر رضى الله عنه . حيث يتزود بما يريد معرفته عن الإسلام وأحكامه . وقد لاحظ النبى ﷺ ذلك وباركه . حتى أنه اختاره أميرا عليهم بعد الإسلام لحرصه الشديد على تعلم القرآن والتفقه فى الدين الإسلامى بشكل ملفت .

وهكذا أقام الوفد أياما من رمضان صاموا فيها كما صام المسلمون . ثم عادوا إلى قومهم . بعد أن أوصى النبى ﷺ أميرهم عثمان بن أبى العاص قائلا : « تجاوز فى الصلاة ، وأقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة » عادوا وفى صحبتهم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ليقوما بهدم اللات ، وسط نواح النساء وبكائهن ، وحسرة الرجال وحزنهم ، وسخرية المغيرة بن سعيد وضحكاته . وأخذ المغيرة

ابن سعيد الأموال والحلى التى كانت تحت قدمى هذا الصنم وقضى بها دينا من الديون كما أمره النبى ﷺ .

وهكذا دخلت الطائف الاسلام صوما . وباسلامها تم إنتشار الدين الإسلامى فى شبه الجزيرة العربية □

ودخـــل
الناس
الإسلام
أفواجـا

ومع الأيام الأخيرة من شهر رمضان فى العام التاسع للهجرة . وهو عام التوبة ، أو عام الوفود كما عرفنا ... تتوافد أفواج متتالية من القبائل العربية فى شبه الجزيرة العربية . على النبى ﷺ معلنة اسلامها بعد الانتصارات المتتالية للمسلمين . تلك التى انتهت بفتح مكة ، وانسحاب الروم ، واستسلام الطائف وغيرها من القبائل . ليؤمن الناس بهذا الدين

ورسالة نبيه الكريم بنص الآية الكريمة : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك وأستغفره إنه كان توابا ﴾ .

بعد هذا الاستقرار الذى حققته الدعوه الإسلامية ... يبقى النبى ﷺ بالمدينة حيث يتوافد عليه ممثلو القبائل العربية . فقد أصبح لدى العرب ميل واضح وشديد . لأن يستظلوا بلواء الإسلام أما عن إيمان بهذا الدين الذى جاء للناس كافة . أو عن مصلحة مؤداها أن يكونوا بمنجاة من تحكم القوتين الأعظم فى العالم القديم وهما الروم والفرس هذا من ناحية . أو حقيقة مؤداها أن هذه القبائل . لا طاقة لها بحرب مع النبى ﷺ ، ولا قبل لها على عداوته ، ولا سبيل آخر غير مهادنته ومصانعته والإذعان لتعاليمه بعد ازدياد نفوذه فى شبه الجزيرة العربية وما يحيط بها من ناحية أخرى .

ولهذا لم يكن عجيبا أو غريبا والحال كذلك أن يقدم على النبى ﷺ وفد من بنى عامر . على رأسه « عامر بن الطفيل » الذى بيَّت أمرا مع عضو آخر من الوفد هو « أربد بن قيس » خلاصته قتل النبى ﷺ غدرا فى أثناء استقباله عليه أفضل الصلاة والسلام .

فكر هذا المشرك فى ذلك بعد أن الح عليه قومه مرارا حاثين إياه على الدخول فى الإسلام بقوله : « ياعامر إن الناس اسلموا فاسلم » .

وهنا رد عليهم عدو الله عامر بن الطفيل : « والله لقد كنت آليت

ألا انتهى حتى تتبع العرب عقبى . فأما اتبع عقب هذا الفتى من قريش » ثم قال لشريكه فى الغدر أربد بن قيس : « إذا قدمنا على الرجل (يقصد النبى ﷺ . فإنى سأشغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فأعْلُهُ بالسيف » أى فأهوى عليه بالسيف قاتلا .

فلما قدموا على النبى ﷺ بالمدينة . بدأ عامر بن الطفيل فى تنفيذ مؤامرته من أولى لحظات اللقاء مشتركا مع قيس بن أربد . وذلك حين بادر النبى ﷺ قائلا : يامحمد خالنى » أى لتخلو لى لأتحدث معك . قال النبى ﷺ : « لا والله حتى تؤمن بالله وحده ورسوله » .

قال عدو الله شاغلا النبى ﷺ عن شريكه فى الغدر قيس بن أربد قائلا : « يا محمد خالنى » وجعل يكلم النبى ﷺ ليشغله حتى يعطى فرصة لشريكه لتنفيذ ما قد كانا إتفقا عليه قبل قدومهما وهو قتل النبى الكريم . فرد النبى ﷺ على عدو الله عامر قائلا : « لا والله حتى تؤمن بالله وحده ورسوله » وبقى شريك الغدر القابض على السيف لا يفعل شيئا .

فلما رأى ابن الطفيل إمتناع شريكه حامل السيف عن فعل ما اتفقا عليه كرر نفس الطلب مشفوعا بحديث به يشغل الرسول ﷺ الذى يبادره بنفس الرد : « لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » .

وهنا صاح عدو الله غاضبا محتدا مهددا متوعدا قائلا : « أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا » أى ليحرضن القبائل عليه لتأتى بخيلها ورجالها . كإعلان بالحرب . فما كان من النبى إلا أن رد عليه « اللهم

اكفنى عامر بن الطفيل » بحلم لا يصدر إلا ممن بنى خاطبه ربه ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

فلما خرجا حليفا الشر وشريكا الغدر والتآمر قال أحدهما عامر بن الطفيل للآخر : « ويلك ياأربد أين ما كنت أمرتك به » .

قال أربد : « والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره . إلا ودخلت (يقصد عامر) بينى وبين الرجل (النبى ﷺ) حتى ما أرى غيرك أمامى . أفاضربك بالسيف ؟ » .

وفى الطريق إلى قبيلتهم بعث الله إلى عامر بن الطفيل مرض الطاعون . فيصيبه فى مقتل هو عنقه بينما يكون فى بيت إمرأة يهودية حتى يهلك . ويكون هلاكه مقرونا بفضح أمره لدى قومه أولا لأنه بذهابه للرسول ﷺ ووفادته لم يكن مسالما وإنما غادرا . والغدر عند العرب من الكبائر . ثانيا لأن حياته تنتهى هكذا فى بيت مشبوه ليهودية وهذا يتنافى ولو ظاهريا مع كونه زعيم لقبيلة أو حتى عشيرة .

أما شريكه أربد بن قيس . فلم يكن مصيره هو الآخر بأقل من مصير ابن الطفيل . لقد داهمته صاعقة أحرقته هو وجمله ليكون عظة وعبرة للناس .

* * *

وصنيع مخالفا لما صنعه حليفا الشرك والغدر « عامر » و « قيس » نجده من أحد أعضاء وفد بنى سعد بن بكر . فبينما كان النبى ﷺ بالمسجد وسط صحابته رضوان الله عليهم . دخل عليهم الوفد ، وبينهم

« ضمام بن ثعلب » الذى بادر النبى وصحابته قائلا ! « ايكم ابن عبد المطلب ؟ » فرد النبى ﷺ : « أنا » قال ضمام : « إنى أسألك ومغلظ عليك فى المسأله فلا تجدن فى نفسك ؟ » قال النبى ﷺ : « لا أجد فى نفسى . فسل ما بدا لك ؟ » قال ضمام : « أنشدك الله الهك ، واله من كان قبلك ، واله من هو كائن بعدك . الله بعثك الينا رسولا ؟ » . قال النبى ﷺ : « اللهم نعم » قال ضمام : « فانشدك الله الهك ، واله من كان قبلك ، واله من هو كائن بعدك . الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ، ولا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان أباءنا يعبدون معه ؟ » قال النبى ﷺ : « اللهم نعم » قال ضمام : « فأنشدك الله الهك ، واله من كان قبلك ، واله من هو كائن بعدك . الله أمرك أن تصلى هذه الصلوات الخمس ؟ » . قال النبى ﷺ : « اللهم نعم » ...

ثم أخذ ضمام يذكر فرائض الإسلام فريضه بعد أخرى ... الزكاة والصيام والحج . ثم شرائع الإسلام بعد ذلك كلها . ينشده الله عند كل فريضة كما نشده فى الفريضة التى قبلها . حتى إذا فرغ النبى الكريم من إجاباته . قال ضمام : « فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله » ثم انصرف فقال النبى ﷺ لصحابته رضوان الله عليهم : « إن صدق دخل الجنة » .

وعاد ضمام إلى قومه بنى سعد بن بكر . حتى إذا أتاهم قال لهم : « بئست اللات والعزى » قالوا له : « مه ياضمام ؟ » قال : « ويلكم انهما (أى اللات والعزى) والله لا يضران ولا ينفعان ... إن الله قد بعث رسولا

وأنزل كتابا ، استنقذكم به مما كنتم فيه وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا رسوله . وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه » .

* * *

ويتوافد على الرسول ممثلو القبائل المختلفة . وكل يناقشه فى أمر هذا الدين الذى بعث من أجله . والنبى ﷺ يرد فى هدوء وحلم يبعثان الثقة به ، والطمأنينة فى قلب سائله . فيزداد إيمانا عن إقتناع بهذا الدين الذى لم يكن إنتشاره بحد السيف حين كان يدافع ويهاجم ... ويجاهد فى سبيل الله فحسب وإنما كان إنتشاره أيضا بالحجة والدليل والإقناع والإقتناع . حتى أصبحت العقول الواعية لا قِبلَ لها برده ولا ملجأ للفرار منه إلا اليه . وهنا يعلق إبن هشام فى السيرة النبوية قائلا : « فوالله ما أمسى بعد ذلك اليوم فى حاضره رجل ولا إمرأة إلا مسلما » .

وهكذا كانت تتوافد القبائل ، ويتحدث رؤوسها كما يذكر إبن هشام فى السيرة النبوية ، وكما افرد لها إبن سعد فى طبقاته الكبرى خمسين صفحة من القطع الكبير غطاها باسماء هذه القبائل وزعمائها وأكبر رجالاتها .

وسارع المشركون من أهل شبه الجزيرة إلى الدخول فى الإسلام ، تاركين عبادة الأوثان ، وتطهرت بلاد العرب جميعا من الاصنام والازلام وعبادتها . تم ذلك دون إراقة للدماء . وأقبل الناس يدخلون فى دين الله أفواجا وانتشر الإسلام فى طول البلاد وعرضها . وبدأ النبى ﷺ فى الخطوة الثانية . أن يثبت هذا الدين على دعائم قوية وأسس راسخة . وكان ذلك

حين بعث إلى هذه القبائل التى اعلنت اسلامها من يفقههم فى أمر دينهم الجديد ... فأختار عددا من السابقين إلى الإسلام . ممن لمس فيهم الغيرة على هذا الدين . والعمل على تثبيته ، والصدق فى الدعوة إليه □

فـــى العيـــد الأول للإســـلام

ودخل الناس فى دين الله أفواجا – كما رأينا – وأصبح لهذا الدين ركائز وتعاليم ، قيم ومبادىء ، أخلاق وفضائل ... جميعها كانت من أسباب انتصار إنسان ، وتقدم أمة ، وبناء حضارة .

هذا الدين كان وما زال أول مصلح ، وأهدى معلم ، وأرشد قائد ، وأرحم مؤدب ، وأبصر مروض .... طبع الأرواح بالآداب الحسنة ، والخلائق الكريمة . وأهدى العقول إلى اكتساب العلوم ، والتوسع فى المعارف .

هذا الدين الذى رفع أمة كانت من أعرق الأمم فى القسوة والتوحش والبداوة والجهالة ... فسما بها إلى أرقى مراقى الرحمة والمدنية والحكمة والعلم .

وها هو نبى هذا الدين محمد صلوات الله وسلامه عليه . يجعل من رمضان فى كل عام ... مناسبة للجهاد والانتصار والتقدم . كما هو شهر للخير والرحمة والبركة . ففى هذا الشهر المعظم جاهد وتقدم وانتصر أيام بدر وحنين وتبوك وغيرها من أيام الإسلام المجيدة ... التى فيها تحطمت رؤوس الشرك ، وانتهت عهود الوثنية ودالت أمم الفساد ... لتشرق على العالمين فجر خير أمة أخرجت للناس .

أمة فيها تتعقب الفضيلة معاقل الرذيلة ، والعدل يصبح أساس الحكم ، والتراحم يأخذ محل التناحر ، وها هو نبى هذه الأمة صلوات الله وسلامه عليه . يخرج فى عيد الفطر (وهو أول عيد مشرع فى الإسلام بعد الانتصار فى بدر) من كل عام – كما تحدثنا كتب السيرة – فى رمضان السنة العاشرة للهجرة . وهى فى التاريخ الإسلامى سنة الوداع أو عام الوداع .

سمى العام هكذا من حجة الوداع ، إذ كانت هذه الحجة هى آخر خروج للنبى ﷺ إلى بيت الله الحرام ، وبخطبته الخالدة التى نعرفها بخطبة الوداع . التى أجمل فيها كل ركائز الإسلام من عبادات ومعاملات ... وكان عليه الصلاة والسلام كلما فرغ من فقرة . رفع رأسه إلى المائة ألف ممن

آمنوا به وبرسالته وجاءوا لأداء فريضة الحج قائلا : « ألا هل بلغت اللهم فاشهد » .

* * *

ها هو النبى ﷺ . يخرج فى العيد السابق لحجة الوداع . وهو عيد الفطر المبارك . كعادته كل عام . والمسلمين حوله مسرورين مغتبطين ... بعد جهاد مرير ضد نوازع النفس لترسيخ قواعد الإيمان . وجهاد أقسى وأمر ضد أعداء الإسلام الذين كانوا يناصبون الإسلام العداء ولا يريدون أن تقوم له قائمة . ها هو يخرج يوم العيد فى طريقه إلى المسجد بعد أيام حلوة هنية لها طعم الشهد وأخرى مريرة لها طعم العلقم ، يخرج فى كوكبة من المؤمنين لصلاة العيد فى أبهى مظهر ، وأجمل ثياب حيث يقول عن ذلك سبطه الحسن بن على رضى الله عنهما : « أمرنا النبى ﷺ فى العيد أن نلبس أجود ما نجد ، وأن نتطيب بأجود ما نجد » وقال ابن القيم رضى الله عنه : « كان النبى ﷺ يلبس للعيد أجمل ثيابه ، وكان له حلة يلبسها للعيدين والجمعة » . وكان صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى الصلاة يقدم الأكل أو كما قال أنس بن مالك رضى الله عنه : « كان النبى ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات ... يأكلهن وترا » أى ثلاثا أو خمسا أو سبعة . وحكمة التعجيل فى الأكل قبل الصلاة فى عيد الفطر من النبى ﷺ . حتى يسن الإفطار فلا يواصل الناس الصوم بعد رمضان . وقد حرص النبى الكريم على ذلك أشد الحرص على الإفطار فى اليوم الأول من أيام العيد حتى يشرع للناس من بعده الاحتفال بهذا اليوم بعد مجاهدة للنفس دامت شهرا .

وكان عليه الصلاة والسلام يحرص على زكاة الفطر قبل الصلاة العيد بوقت طال أو قصر المهم أن يكون قبل هذه الصلاة حتى لا تتحول الزكاة – وهى ركن من أركان الإسلام – إلى مجرد صدقة وكما قال ابن عباس رضى الله عنه : « فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وطعمة للمساكين ، فمن أداها قبل الصلاة فهى زكاة مقبولة ، ومَنْ أداها بعد الصلاة فهى صدقة من الصدقات » .

وكان عليه الصلاة والسلام يجيز صلاة عيد الفطر فى المسجد إذا كان هناك عذر كمطر ، ولكنه كان يفضل تأديتها خارج المسجد كما أشار أبو هريرة إلى ذلك قائلا : « إنهم أصابهم مطر فى يوم العيد فصلى بهم النبى ﷺ فى المسجد » .

وكان عليه الصلاة والسلام يشرع خروج الصبية فى العيد وكذلك النساء للصلاة . بغير فرق بين البكر والثيب والشابة والعجوز والحائض كما قالت الأنصارية نسيبة رضى الله عنها : « أمرنا ﷺ أن نخرج العواتق (أى البنات البكر) والحيض فى العيدين يشهدن الخير ... » إلا أن الحيض يعتزلن المصلى .

وقال ابن عباس رضى الله : « كان النبى ﷺ يخرج نساءه وبناته فى العيدين ، وكان ﷺ إذا ذهب من طريق رجع من طريق آخر » أو كما قال أبو هريرة رضى الله عنه : « كان النبى ﷺ إذا خرج إلى العيد يرجع فى غير الطريق الذى خرج فيه » .

وكان تحديد وقت صلاة عيد الفطر بقدر المسافة بين رمحين زوال

أو كما قال جندب رضى الله عنه : « كان النبى ﷺ يصلى بنا الفطر والشمس على قيد رمحين » أى على قدر رمحين والرمح يقدر بثلاثة أمتار . وكان ﷺ إذا دخل المصلى أدى صلاته من غير أذان ، ولا إقامة أو كما قال ابن القيم رضى الله عنه : « كان النبى ﷺ إذا انتهى إلى المصلى أخذ فى الصلاة من غير أذان ولا إقامة ولا قول الصلاة جامعة » .

وقد سن لنا النبي ﷺ ركعتين لصلاة عيد الفطر ، فيهما يكبر المصلى قبل القراءات . فى الركعة الأولى سبع تكبيرات ، وفى الركعة الثانية خمس تكبيرات . ففى رواية أبو داود والدارقطنى : « قال النبى ﷺ التكبير فى الفطر سبع فى الأولى ، وخمس فى الآخرة والقراءات بعدهم » .

وخطبة العيد بعد الصلاة . وهى سنة والاستماع اليها سنة كذلك كما قال ابن عباس رضى الله عنه : « كان النبى ﷺ يخرج يوم الفطر إلى المصلى وأول شيء يبدأ به الصلاة . ثم ينصرف مقابل الناس ، والناس جلوسا فى صفوفهم فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم . وإن كان يريد أن يقطع بعثا (أى يجهز جيشا) أو يأمر بشيء أمر به ثم ينصرف » .

أو كما قال فى هذا الصدد عبد الله بن السائب رضى الله عنه : « شهدت مع رسول الله ﷺ العيد . فلما قضى الصلاة قال إنّا نخطب . فمن أحب أن يجلس للخطبه فليجلس ، ومن أحب أن يذهب فليذهب » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يفتتح خطبة عيد الفطر بالحمد كما

قال ابن القيم : « كان صلى الله عليه وسلم يفتتح خطبه كلها بالحمد لله . ولم يحفظ عنه فى حديث واحد أنه كان يفتتح خطبتى العيد بالتكبير » .

ويؤكد مسألة بداية خطبة النبى فى العيد بالحمد لله ، وليس بالتكبير شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية رضى الله عنه : « لأن النبى ﷺ قال : كل امرىء ذى بال . لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم » أى ناقص .

كذلك كان اللعب المباح ، واللهو البرىء ، والغناء الحسن .. من شعائر العيد وملامحه التى شرعها النبى ﷺ . رياضة للبدن وترويحا عن النفس وإسعاد للفؤاد . أو كما قال أنس بن مالك رضى الله عنه : « قدم النبى ﷺ المدينة ولهم (أى لأهل المدينة) يومان يلعبون فيهما . فقال قد أبدلكم الله تعالى خيرا منهما يوم الفطر ويوم الأضحى » .

وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « إن الحبشة كانوا يلعبون عند رسول الله ﷺ فى يوم عيد . فأطلعت من فوق عاتقه فطأطأ منكبيه فجعلت أنظر إليهم من فوق عاتقه حتى شبعت ثم انصرفت » .

وقالت أيضا السيدة عائشة رضى الله عنها : « دخل علينا أبو بكر فى يوم عيد ، وعندنا جاريتان يذكران يوم بعاث (يوم مشهود من أيام العرب) يوم قتل فيه صناديد الأوس . فقال أبو بكر . عباد الله أمزمور الشيطان عند النبى (قالها ثلاثا) فقال رسول الله ﷺ . يا أبا بكر دعهما إن لكل قوم عيدا وإن اليوم عيدنا » .

وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « ... وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق (أى التروس) والحراب . وإما سألت النبى ﷺ وإما قال تشتهين تنظرين ؟ فقلت : نعم . فأقامنى وراءه خدى على خده وقال دونكم يابنى أرقدة (لقب الحبشة) حتى إذا مللت قال حسبك . قلت : نعم ، قال : فاذهبى » .

وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « إن رسول الله ﷺ قال يومئذ ليعلم يهود المدينة أن فى ديننا فسحة . إنى بعثت بحنيفية سمحة ... » .

* * *

وعلى هذا يمكن القول بأن العيد فى عصر النبوة لم يكن مجرد أداء صلاة فحسب ، وإنما كان له معانى اجتماعية وسياسية واقتصادية إلى جانب المعنى المعروف وهو الدينى .

كان العيد فى عصر النبوة أضخم تجمع عقدته قاعدة الإسلام فى المدينة . ولا يفوقه – من بعد – إلا أجتماع الحج الأكبر □

الختـــام

وبعد ... فهذه حقا رحلة ممتعة مع هدى النبى ﷺ فى شهر رمضان . كنا ولازلنا فى رحابه نلتمس هديه فى صيامه وذكاته ، فى صلاته وقيامه ، فى لحظات نزول الوحى وتبليغه للناس ، فى حربه وسلامه ، فى عفوه وشدته ... والآن هل نحن فى حاجة إلى مزيد من القول بفضائل هذا الشهر المعظم ؟ .

ربما لأن فضائل شهر رمضان لا تعد ولا تحصى ، وكرم هذا الشهر لا يحصر ولا يستقصى ويكفيه فضلا أنه شهر نزول القرآن ، وأن فيه ليلة

هى خير من ألف شهر ، ويكفيه عزا وفخرا على غيره من الشهور أن فيه تمت إنجازات المسلمين الكبرى . ففيه يوم بدر التى كانت بداية لإعلاء كلمة الله ونصرة نبيه ودينه ، وفيه فتح مكة وضرب رؤوس الكفر والشرك فى معاقلهم ، وفيه هزيمة الروم وظهور الدولة الإسلامية الناشئة كقوة فى ميزان العالم القديم ، وفيه بدأ دخول الناس فى دين الله أفواجا عن رغبة واختيار لا عن رهبة وإجبار .

إن فضل شهر رمضان على المسلمين يتجلى فيما أعده الله فيه من خير وبركة ، وأودعه فى أيامه ولياليه من صفح ومغفرة ، وفيه تفتح أبواب الجنة ، وتغلق أبواب النار ، وتصفد أفعال الشياطين ، وينادى عليهم أن أقبلوا على الخير وابتعدوا عن الشر . فى شهر أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار .

وقد صدق رسول الله ﷺ حين قال : « إذا كان أول ليلة من شهر رمضان فتحت أبواب الجنان فلم يغلق منها باب واحد الشهر كله . وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب واحد الشهر كله ، وغلت عتاة الجن ، ونادى منادى من السماء كل ليلة إلى انفجار الصبح : ياباغي الخير يمم وأبشر ، وياباغى الشر أقصر وأبعد . هل من مستغفر يغفر له ؟ هل من تائب يتاب عليه ؟ هل من داع يستجاب له ؟ هل من سائل يعطى سؤاله ؟ والله عز وجل يعتق عند كل فطر من شهر رمضان كل ليلة عتقاء من النار ستون ألفا . فإذا كان يوم الفطر أعتق الله مثل ما أعتق فى جميع الشهر ثلاثين مرة ... » .

كما صدق رسول الله ﷺ حين قال : « إن الجنة لتزين من الحول إلى الحول لدخول شهر رمضان . فإذا كانت أول ليلة فيه هبت ريح من تحت العرش فتصفق أوراق الجنة . فيسمع لذلك طنين لم يسمع السامعون أطيب منه ، وتبرز الحور العين حتى يفضن بين شرف الجنة ، ثم يقلن يارضوان ما هذه الليلة الجليلة ، فيجيبهن بالتلبية قائلا : ياخيرات حسان هذه أول ليلة من رمضان فتحت فيها أبواب الجنة » .

وأخيرا صدق رسول الله ﷺ فى حديثه عن فضائل هذا الشهر المعظم حيث قال : « أعطيت أمتى فى شهر رمضان خمسا لم يعطهن نبى قبلى . أما واحدة فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله عز وجل إليهم ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبدا . وأما الثانية فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك ، وأما الثالثة فإن الملائكة تستغفر لهم فى كل يوم وكل ليلة ، وأما الرابعة فإن الله عز وجل يأمر جنته فيقول لها استعدى وتزينى لعبادى أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دارى وكرامتى ، وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعا . وهنا قال أحد المؤمنين : أهى ليلة القدر يارسول الله . فرد عليه الرسول ﷺ : لا ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا وفوا أجورهم ... » .

حقا إن لرمضان فضائله العظيمة التى لا تقدر إلا بهذه الصورة التى رأيناها منذ قليل ... صورة الرسول ﷺ وعدد من صحابته يستقبلونه مغتبطين مستبشرين يعيشونه حربا وسلاما ، جهادا للنفس وجهادا للآخرين . مرحلة بناء وإنشاء وعبادة ... تمتزج جميعها لتعطينا المعنى العظيم من فرض هذا الشهر المعظم □



المراجع

القرآن الكريم
الأحاديث القدسية
الأحاديث النبوية
السيره النبوية لإبن هشام
الطبقات الكبرى لابن سعد
الإصابه لابن حجر
بغية الوعاة للسيوطى
تاريخ الخلفاء للسيوطى
تاريخ الطبرى
تاريخ ابن كثير
عيون الأثر فى المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس
الفهرست لابن النديم
معجم البلدان لياقوت الحموى
إمتاع الأسماع للمقريزى
زاد المعاد لابن قيم جوزية
إحياء علوم الدين للإمام أبو حامد الغزالى

تفسير المنار

فقه السنة للشيخ سيد سابق

فتاوى الشيخ الإمام الدكتور عبد الحليم محمود

شهر رمضان فى القرآن للشيخ عبد الحليم محمود

مع الصائمين للشيخ أحمد حسن الباقورى

حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل

على هامش السيرة للدكتور طه حسين

عبقريه محمد للأستاذ عباس محمود العقاد

» الصديق » » »

» الإمام » » »

» عمر » » »

الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين

فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين

ضحى الإسلام » » »

ظهر » » » »

محمد الرسول البشر للأستاذ توفيق الحكيم

محمد نبى البر المختار للأستاذ إبراهيم الإبيارى

نساء النبى للدكتورة عائشة عبد الرحمن
نساء النبى للدكتور محمد بدر
نساء النبى للأستاذ سعد هارون عاشور
تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن
أسد الغابة فى معرفة الصحابة تحقيق الدكتور محمد إبراهيم ، والدكتور محمد أحمد عاشور
النبى محمد والسياسة الدولية للدكتور مصطفى كمال وصفى
محمد وحقوق الإنسان للأستاذ محمود الشرقاوى
أبناء الرسول فى كربلاء للأستاذ خالد محمد خالد
تحقيق النصوص ونشرها للأستاذ عبد السلام هارون
الانتصارات العربية فى صدر الإسلام للمشير محمد عبد الحليم أبو غزالة
محمد فى بشارات الأنبياء للأستاذ محمود الشرقاوى
محمد رسول الله والذين معه للأستاذ عبد الحميد جودة السحار
محمد رسول الحرية للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى
فى ظلال السيره للأستاذ محمد لبيب البوهى
قبس من هدى الرسول للدكتور إسماعيل الدفتار
رمضان شهر الجهاد للأستاذ محمد رجاء عبد المتجلى

محمد الرسول العظيم تأليف لفيف من العلماء

دروس مستفادة من غزوة أُحد للدكتور عبد العزيز كامل

الرسول فى رمضان على حسنى الخربوطلى

معجزة القرآن للشيخ محمد متولى الشعراوى

إعجاز القرآن للأستاذ مصطفى الرافعى

فصل فى الإعجاز للأستاذ محمود محمد شاكر

الرسول لمحات من حياته للإمام الشيخ الدكتور محمد عبد الحليم محمود

الحسين أبو الشهداء للعقاد

الحسين سيد شباب أهل الجنة للدكتور محمد أحمد عاشور

سبل السلام للعسقلانى

إسلاميات سامح كريم

لمحات من حياة النبى : سامح كريم .

القاموس الإسلامى لأحمد عطية الله

حوليات الإسلام إعداد أحمد عطية الله .

دائرة المعارف الإسلامية المترجمة

كتب للمؤلف

كتب صدرت :

١ – رمضان والحرب	١٩٦٨	كتاب الإذاعة والتليفزيون
٢ – لمحات من حياة النبى	١٩٧٠	» » »
٣ – يوم عاشوراء	١٩٧١	كتاب التعاون
٤ – عيد الأم فى الإسلام	١٩٧٢	» »
٥ – طه حسين مواقف وأعمال	١٩٧٤	كتاب الإذاعة
٦ – العقاد مواقف وأعمال	١٩٧٥	» »
٧ – ماذا يبقى من طه حسين	١٩٧٥	مؤسسة الشعب
٨ – معارك طه حسين الأدبية والفكرية	١٩٧٧	طبعة دار القلم بيروت
٩ – إسلاميات (الجزء الأول)	١٩٧٧	دار القلم بيروت
١٠ – ماذا يبقى من العقاد	١٩٧٨	دار القلم بيروت
١١ – طه حسين يتكلم	١٩٧٨	مؤسسة دار المعارف
١٢ – العقاد فى معاركه الأدبية والفكرية	١٩٨٠	دار القلم بيروت
١٣ – العقاد فى معاركه السياسية	١٩٧٩	دار القلم بيروت
١٤ – قمم وأفكار إسلامية (الجزء الأول)	١٩٨٤	دار الف والوفا للنشر
١٥ – مع النبى فى رمضان	١٩٨٩	الناشر : مكتبة الخانجى بالقاهرة

كتب تحت الطبع :

١ – خمس كتب هزت العالم الإسلامى	مقالات نشرت بالأهرام
٢ – قضايا معاصرة فى الفن والأدب والفكر	« « «
٣ – أفكار إسلامية صنعت الحضارة الأوربية	« « «
٤ – الأفغانى بين الحقيقة والافتراء	« « «
٥ – الأزهر قلعة الإسلام	« « «
٦ – حوار السبت مع الكبار	أحاديث نشرت بالأهرام
٧ – محمود شاكر حياته من كتاباته	مقالات نشرت بالأهرام
٨ – رسائل متبادله بين الإمام محمد عبده وتولستوى	« « «
٩ – على هامش تراثنا العربى	« « «
١٠ – الشيخ الطنطاوى فى روسيا	« « «
١١ – قمم وأفكار إسلاميه (الجزء الثانى) و (الجزء الثالث)	« « «
١٢ – إسلاميات (الجزء الثانى)	« « «
١٣ – العقاد فى ذكراه المائة	« « «
١٤ – د . طه حسين فى ذكراه المائة	« « «
١٥ – كاتب عربى وجائزه عالميه	

فهـــرس

مع النبى فى رمضان







رحلة مباركة مع النبى ﷺ فى رمضان تستوعب صفحات هذا الكتاب .

فيها نلمح جوانب من شخصية النبى الأعظم ، ورسالته الخالدة التى كانت اكبر حدث فى التاريخ . فما اجتمعت الأقوام أو انفضت إلا لها ، وما تحدث الملأ أو سكت إلا عنها ، وما اتفقت الآراء أو اختلفت إلا عليها وما تحركت الجيوش أو توقفت إلا اليها ... حتى كان قصارى بلاء صاحبها فيها اهتمام القوم بها .

وفى هذه الرحلة المباركة ... نتوقف عند ذلك اللقاء الفريد الذى انتظم طبيعتين مغايرتين هما بشرية الرسول وملائكية جبريل ، أو هذا الاستقبال الحافل لأول عيد فى الإسلام ، أو هذه التجربة الأولى لأول صلاة فى الإسلام ، أو ذلك الإقبال العظيم للدخول فى الدين أفواجا ... ونتوقف أيضا عند هذه المعارك الحاسمه فى تاريخ الإسلام فى بدر والخندق والفتح وتبوك وحنين ....

ومع هذه وتلك يخطف إنتباهنا ذلك الهدى الشريف للنبى ﷺ فى بيته مع أهله أو فى مسجده مع صحابته ، أو هذا الأسلوب الشائع فى معاملة اباطرة وملوك العالم القديم ، أو ذاك السلوك الكريم مع الأسرى والجرحى ، أو هذا التعامل الحسن لأهل الكتاب من المسيحيين ... متتبعين فى كل ذلك هديه فى صيامه وقيامه ، فى وضاله واعتكافه فى صلاته وزكاته ، فى حربه وسلامه .

رحلة ممتعه تستغرق شهرا هو رمضان ... من بعده نتبين أننا أمام دين له قيم ومبادئ ، ومجتمع له أخلاق وفضائل ، ودوله لها نظم وسياسات ، وحضارة لها معالم ومقومات .

المؤلف

